منشورات الجامعة اللبنانية
قسم الدراسات التاريخية



بشير
بين السلطان والعزيز
١٨٠٤ – ١٨٤١

للدكتور أسد رستم
أحد اساتذة التاريخ في الجامعة اللبنانية

القسم الأول



التوزيع:
دائرة منشورات الجامعة اللبنانية، الادارة المركزية، المتحف
الفروع الجامعية في المناطق

منشورات الجامعة اللبنانية

قسم الدراسات التاريخية

٢

بشير بين السلطان والعزيز

١٨٠٤ - ١٨٤١



للدكتور أسد رستم

احد اساتذة التاريخ في الجامعة اللبنانية

القسم الاول

الطبعة الثانية



بيروت

١٩٦٦

كلمة المؤلف

قضت ظروف الاتراك العثمانيين بفتح يسير . فاكتفوا بالطاعة والضرائب . ولم ينتدبوا للقيام بمهامّ الحكم من ابناء جنسهم سوى اكبر كبراء الموظفين . فجاء فتحهم قليلاً ضعيفاً. وبقيت شؤون الاقطار الشامية في معظمها على ما كانت عليه قبل الفتح .

وانحاز اللبنانيون عن المماليك في اثناء الفتح ، او قبله ، ومالوا الى الاتراك . فنالوا بذلك امتيازات في الحكم لم يتمتع بها غيرهم من بين طوروس وسيناء . فكان على الولاة العثمانيين بعد ذلك ان يعترفوا بحكومة لبنانية تدير شؤون لبنان الداخلية بزعامة امير لبناني معني ثم شهابي .

وكان للحكومة العثمانية ان تنحط سريعاً وتتدهور . وكان لحكامها في الولايات ان يعنوا بكل ظاهرة من ظواهر الحكم ، ما عدا العدل والامن . وطمعوا في لبنان ، ولاسيما في « بقاعه العزيز » فرُدّوا على اعقابهم خائبين . ووقع احدهم (مصطفى) اسيرًا في مجدل عنجر . وفرّ غيره (كنج) من مركز ولايته دمشق ، لدى وصول اللبنانيين اليها . وفاوض ثالث (درويش) صاغرًا .

ونزعت نفس فخر الدين الثاني الى الاستقلال التام . وفاوض في ذلك واستعدّ له . ولكن الحظّ لم يسعده ، فباء بالفشل . ولم تسمح ظروف الشهابيين الداخلية بشيء من الاهتمام بالاستقلال قبل ايام بشير الثاني . ورأى هذا الشهابي الكبير بثاقب نظره ان لا فائدة ترتجى من الاتراك العثمانيين وسلطنتهم . ولمس في الوقت نفسه عبقرية محمد علي لمس اليد ، فاتصل به في مصر ، وفاوضه في تحالف لا تزال نجهل تفاصيله حتى ساعتنا هذه . ثم خرج الاثنان معاً على السلطان، وتعاونا تعاوناً وثيقاً . وكان لبنان آنئذٍ يقدم الى ساحات الوغى اكبر العناصر العسكرية

المحلية عددًا ، واشدّها بأساً ، واحذقها يدًا في استعمال السلاحين الناري والابيض . فرجحت كفة العزيز في سورية وفلسطين وتوابعها في اثناء الحرب الاولى بين العزيز والسلطان. وتمكن العزيز ، بفضل الشهابي ورجاله ، من اخماد الثورات في فلسطين ، وفي الاردن ، ومناطق عكار ، والعلويين .

ثم التبس على العزيز وجه الصواب ، فتدخل في شؤون اللبنانيين . وطلب منهم سلاحهم ، ثم ابناءهم للخدمة في جيشه . فرأوا في هذين الامرين محاولة جدّية لسلب حرياتهم . فنفروا منه واذاقوه الامرين في حوران اولًا ، ثم في وادي التيم ، فكسروان ، والمتن . وتدخلت الدول ، واضطر محيي مصر بعد ذلك الى ان يعود الى بلاده ، وان ينكمش على نفسه فيها .

وخسر لبنان بشيره الثاني . ودخل في دور من الفوضى لم ينتهِ قبل السنة ١٨٦١ . ولكنه دافع عن الحرية ، والكرامة ، والصدق ، والامانة ، بخروجه مع العزيز على السلطان اولًا ؛ ثم بصموده في وجه العزيز نفسه واكراهه على العودة الى مصر . وحافظ بعمله هذا على حرمة الشخص البشري ، على هذه الانسنة التي لا يزال يباهي بها حتى يومنا هذا .

اسد رستم

لفظ الجزار أنفاسه في ربيع السنة ١٨٠٤ فتنفَّس اهل « برّ الشام » الصعداء حامدين المولى على انتهاء دوره وتبارى شعراؤهم في تأريخ هذا الفرج بعد الشدة . فقال شاعر القصر في لبنان آنئذٍ :

يا آل برّ الشام بشراكم فقد	مات الذي انشا المظالم وانتهك
الخائن الغــدار سفاك الدما	من كان في قتل النفوس قد انهمك
عـكا تنادي اللطف يا مولاي من	هذا الظلوم فـكم دمٍ فيَّ سفك
بـــل كم يتيمٍ في الورى ويتيمةٍ	منـــه وكم في الحي ارملةٍ ترك
لا يرحم الرحمن تلـــك الروح ما	دار المدار وطال ما دار الفلك
لما احتسى كأس المنية واصطفى	دار اللظى ومع الرجيم قد اشترك
انشدت مسرورًا وبالتــاريخ جا	هو ذلك الجزار احمد قد هلك[1]

وبوفاة الجزار بعد زوال ظاهر العمر من قبله عاد الى لبنان نفوذه لا بل سيطرته على مقدرات برّ الشام السياسية . ويرجع هـــذا النفوذ الى عاملين اساسيين اولهما قوة لبنان العسكرية والثاني شخصية اميره ومدبر اموره بشير الثاني الشهابي الكبير .

---

(١) نسب الامير احمد الشهابي المؤرّخ (لبنان في عهد الامراء الشهابيين ' طبعة رستم والبستاني' بيروت ١٩٣٦ ' ج ٢ ص ٤١٠) هذه الابيات الى المعلم نقولا الترك ' شاعر الامير بشير الكبير . على انها وردت في احدى نسخ ديوان الترك منسوبةً للشاعر الياس اده . (راجع ديوان المعلم نقولا الترك ' طبعة فؤاد افرام البستاني ' بيروت ' ١٩٤٩ ' ص ١٧٢) .

الفصل الاول

لبنان

١٨٠٤ - ١٨٣٢

حدوده

كان لبنان لا يزال ينعم بنظام داخلي خاص منذ الفتح العثماني . وقد قضى هذا النظام بتوحيد جميع الاراضي اللبنانية في شخص امير لبناني ينتمي الى اسرة لبنانية معينة دون سواها : المعنيين اولاً ثم الشهابيين . وشملت الاراضي اللبنانية اجزاء معينة من ايالات صيدا وطرابلس ودمشق دُعيت معاملات . فمعاملة صيدا اللبنانية بدأت عند مصب نهر الاولي بالقرب من صيدا وانتهت عند جسر روماني قديم شمالي جونية دعي جسر المعاملتين لانه كان الحد الفاصل بين معاملة صيدا وبين معاملة طرابلس . وشملت هذه المعاملة الثانية جميع ما وقع بين جسر المعاملتين وبين نهر البارد شمالي طرابلس . ودخل في لبنان ايضاً اكثر سهل البقاع وبعلبك وجميع المنحدرات الغربية من جبل الشيخ بما فيها حاصبيا وراشيا حتى اصبح الحد الفاصل بين لبنان وبين حكومة دمشق مقلب المياه في اعلى جبل الشيخ[٢]

حكومته

وكان الامير الحاكم يجبي الضرائب ويوردها في حينها ويؤمن العباد ويقضي بينهم . وكان لاعيان البلاد حق انتقاء الاسرة الحاكمة كما جرى عند انقراض

(٢) اخبار الاعيان للشيخ طنوس الشدياق ص ١٩ – ٣٣ ، والمحفوظات اللبنانية في المتحف اللبناني .

المعنيين سنة ١٦٩٧[٣] وحق التشاور معها فيما يعود لمصلحة الكل . ومثال ذلك ما جرى في السنة ١٧٨٨ بين الامير الحاكم الامير يوسف الشهابي وبين اعيان البلاد . قال الشيخ طنوس الشدياق : « وفيها ركدت همة الامير واظهر له الاكابر الجفا. وكان بنو جنبلاط ينفرون الناس منه ويشيعون عنه اخبار الوهن . فاستصوب التنازل عن الولاية وجمع اكابر البلاد وذكر لهم عجزه عن القيام بحق الولاية وما بينه وبين الجزار من المشاحنة واطلق لهم ان يختاروا لهم والياً اخر غيره من الامراء الشهابيين اللبنانيين فاختاروا الامير بشيراً ابن الامير قاسم عمر . وكان الجزار يميل اليه ويرغب ان يجمله والياً وله معه الدسايس والرسايل . وكان بين الامير بشير والفئة الجنبلاطية محالفة وعهود . فاحضره الامير يوسف واشار اليه بان يتوجه الى الجزار ويتوشح بخلعة الولاية على البلاد ».[٤]

وكان بشير هذا اشقر اللون معتدل القامة طويل اللحية نحيفاً اقنى الانف طويل اشهل العينين . وكان بشهادة خصم له عاقلاً عادلاً حليماً شجاعاً فاضلاً كريماً شهماً يقظاً فطناً صادقاً رزيناً حزوماً جباراً فاتكاً صبوراً غيوراً[٥] . وقد حكم لبنان من دير القمر اولاً ثم بنى لنفسه قصراً على هضبة تطل عليها في بتدين . وكانت داره هذه كثيرة النفقات . حيث ينفق كل يوم على الف وخمسماية راس خيل شعيراً وعلى بيته غرارة ونصفاً حنطة وثلاث قفات ارزاً وقنطاراً لحماً. وعنده بين خدم وخاصة نحو الفي رجل[٦].وكان عند الملمات اقوى حكام بر الشام قاطبة ينزل الى ساحة الوغى ما لا يقل عن عشرة الاف رجل كما صرّح بذلك هو نفسه الى العزيز في مصر[٧] . وكان هؤلاء الفرسان اشجع فرسان بر الشام واقدرهم رماية بالرصاص وضرباً بالسيف . وكانت اسلحتهم النارية متنوعة منها الفرد والجفت وهو ذو طلقين والدارة وهي صغيرة تملق على الجنب ومثلها الطبنجة والفرد . اما القربينة فانها كانت بندقية متينة واسعة الفوهة تحشى بالرصاص . ومنها الزربطانات والشرخانات وبنادق الحزنة وهي اشبه بالمدافع الصغيرة توضع على مرفع عند اطلاقها . وكان لدى الامير نفسه بندقية خاصة اهداها اليه عبدالله باشا بعد حصار دمشق اعترافاً بفضله . وهذا ورثها عن سلفه سليمان باشا وقد ارسلها اليه هدية نابوليون الاول سنة ١٨٠٥ « طاقها ذهب وحديدها انعم من القطيفة وطوله

(٣) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ١ ص ٣-٥ .
(٤) اخبار الاعيان للشدياق ص ٤١٩-٤٢٠ .
(٥) اخبار الاعيان ايضاً ص ٦٤.
(٦) مذكرات رستم باز (طبعة فؤاد افرام البستاني ' في منشورات الجامعة اللبنانية ' ١٩٥٥) .
(٧) محمد علي باشا الى عبدالله باشا (١٨٢٤): المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٥٩ .

ذراعان ونصف الذراع »[٨] . واشهر سيوف اللبنانيين آنئذٍ سيف الصاعقة للامير بشير نفسه. وكان مرصعاً بالجواهر وغمده من الذهب الابريز مرصع بالجواهر ايضاً وقد اهدته قرينته بعد وفاته للمغفور له اسماعيل باشا الخديوي . وسيوف رجاله قصيرة عريضة قليلة الانحناء. تساندها الخناجر والسكاكين والشاكريات والفؤوس والبلطات والكلنكات[٩] .

وكان لبنان لا يزال منظماً تنظيماً اقطاعياً . للامير الحاكم ان يولي من شاء من رجال الاقطاع ويعزل من شاء ولكنه لا يخرج في ذلك عن افراد الاسرة الموجهة بالاقطاع . ورجال الاقطاع هؤلاء امراء ومقدمون وشيوخ . اما الامراء فهم الشهابيون والارسلانيون واللمعيون الدروز[١٠] والحرافشة وهم من الشيعة . والمقدمون هم من آل مزهر وهم دروز ايضاً . والشيوخ دروز ونصارى وشيعيون منهم بنو جنبلاط وبنو تلحوق وبنو الخازن وبنو حبيش وبنو عازار وبنو حماده. وكان لرجال الاقطاع امتيازات تجب مراعاتها فلا يقتل احدهم ولا يحبس ولا يضرب . واذا اذنب يكون قصاصه غالباً بمصادرة املاكه او بنفيه من البلاد . واذا دخل المذنب منهم على الحاكم يقابله على عادته في التحية والسلام ولا يهينه واذا كتب اليه كتاب الغضب لم يغير شيئاً من القابه وكراماته ولكنه يترك عبارات الولاء ويثبت ختمه في اعلى الصحيفة وعلى وجهها . اما كتاب الرضى فيكون ختمه على ظهر الصحيفة[١١] .
وكان الاقطاعيون يتصرفون في مقاطعاتهم بتنفيذ اوامرهم ويجبون الاموال المفروضة على الاعناق والارزاق فيرسلون منها الى الحاكم ما فرضه عليهم او ما تعاهدوا عليه والباقي يكون لهم لنفقاتهم الادارية والحربية . واذا رفع احد الرعايا دعوى فالى الاقطاعي واذا لم ينصف ترفع الدعوى الى الحاكم الاعلى فيفاوض الاقطاعيَّ لفصلها بما يريد . فاذا لم تقض يسوغ ان ترفع اليه الشكوى اكثر من مرة فيرسل مباشراً من قبله يفصلها بالتي هي احسن ولا يكون للاقطاعي عتب عليه . واذا حدث خصام بين الاقطاعيين وبين الاهلين يفاوضهم الحاكم كتابةً ثم يرسل من خاصته من يصلح ذات الحال تكون نفقاته ونفقات جواده على المدعى عليه ولا ينصرف الا بامر مولاه . والاقطاعيون يسمح لهم ان يحكموا بالسجن والضرب ولكن العقاب على الكبائر لا يؤذن به الا للحاكم الاعلى . وجميع انباء الحاكم

(٨) تاريخ سليمان باشا لابراهيم العوره ص ٦٩–٧٠ .
(٩) دواني القطوف لعيسى المعلوف ص ٢٥٩–٢٦٠
(١٠) راجع ، في شأن تنصّر بعض هؤلاء الامراء ، مجلة « المشرق » ١٨ : ٥٤٣ ؛ ٢٨ : ٤٣١ ، ٤٩٦
(١١) دواني القطوف لعيسى المعلوف ص ٢٤٨

يكونون تحت حكمه وادارته مباشرة . ويقع تحت حكمه المباشر ايضاً سكان دير القمر وعماطور وعين داره ونيحا وبتلون[١٢] .

وقضى الخضوع للسلطان بتقبل احكام نواب الشرع في طرابلس وبيروت وصيدا . ولكن سلطة هؤلاء الفعلية قلما تناولت ابناء لبنان. فالامير كان ينفذ قرارات شيخي العقل في بتدين وعماطور في الاحوال الشخصية الدرزية[١٣] وفيما يعرض عليها من الدعاوى الحقوقية . وكان لبطاركة النصارى ما لهذين من الصلاحيات القضائية . وكان الامير ايضاً يجري احكام قاضٍ درزي اخر يعينه هو ويجلس للقضاء في الدعاوي الحقوقية في دير القمر[١٤] وينفذ احكام قاضٍ خاص ينظر في الدعاوي العقارية هو الشيخ احمد تقي الدين يعاونه اختصاصي في فن البناء « مدير الاشغال » لدى الامير المعلم رستم مجاعص الشويري[١٥] . اما الدعاوى الجزائية فانها كانت من اختصاص الامير الحاكم ورجال الاقطاع كما مرّ بنا . وكان الموارنة منذ القدم يعتبرون بطاركتهم واساقفتهم قضاة زمنيين يرجعون اليهم في اكثر دعاويهم الحقوقية والجزائية علاوة عن الاحوال الشخصية . وكان لدى هؤلاء الرؤساء الروحيين قوانين مدنية بحتة مقتبسة من الشرائع الرومانية والشريعة الاسلامية يقضون بموجبها . من ذلك كتاب الهدى للمطران داود وكتاب الناموس وغيرهما[١٦] . ولذا فاننا نرى الامير بشيراً يكلف المطران جبرائيل الناصري الماروني ان يعنى بسماع دعاوى الموارنة وان يفصل فيها بالعدل والانصاف . ويظهر من ملفات القضاء في المحفوظات اللبنانية ــ المتحف الوطني اللبناني ــ ان هذا المطران كان قاضياً دوّاراً يقصد قرى الموارنة تباعاً فيسمع الدعاوى التي ترفع اليه ويحكم بها .

وأحب الامير الكبير ان يعدّ قضاة اكفاء يعتز القضاء بهم فانتقى بعد التداول مع البطريرك يوسف حبيش شابين لبنانيين من خيرة شباب ذلك العصر هما الشيخ بشاره انطون

(١٢) في المحفوظات اللبنانية في المتحف الوطني ما يؤيد كل هذا . راجع ايضاً دواني القطوف لعيسى المعلوف ص ٢٤٨ .

(١٣) الشيخ حسن تقي الدين في بعقلين والشيخ حسين عبد الصمد في عماطور .

(١٤) الشيخ شرف الدين القاضي والشيخ محمد القاضي .

(١٥) راجع سجل الشيخ احمد لدى حفيده الشيخ عادل تقي الدين واوراق المؤلف عن جده رستم .

(١٦) الطائفة المارونية للمطران يوسف دربان ص ٣٠٢-٣٠٥ . وللاستاذ الدكتور ابراهيم عواد كتاب خاص في هذا الموضوع *Le Droit privé des Maronites*. طبع في باريز سنة ١٩٣٣ . وراجع ايضاً كلام قنصل فرنسة في بيروت آنئذٍ : HENRI GUYS, *Un séjour de plusieurs années à Beyrouth et au Liban*, II, 138-140.

الخوري والخوري يوحنا الحبيب وارسلها الى بيروت لدرس الشرع على الشيخ احمد الاغر والشيخ يونس الجزري سنة ١٨٣٧ . وفي السنة التالية دفع بها الى طرابلس للغاية نفسها . ولدى عودتها منها في اواخر السنة ١٨٣٩ ابقى الشيخ بشارة قاضياً لديه في بتدين واقام الخوري يوحنا الحبيب قاضياً في جونيه .

احزاب السياسة

ولم يُقم اللبنانيون للطائفية وزناً في تحزباتهم السياسية . قال الشيخ طنوس الشدياق صاحب كتاب اخبار الاعيان : « وسنة ١٧٨٨ توفي الشيخ عبد السلام العماد وكان عاقلاً فصيحاً جداً حتى ضرب المثل بفصاحته وصارت مناظرة بينه وبين الشيخ علي جنبلاط ادت الى المشاحنة فانقسمت طايفة الدروز الى قسمين جنبلاطي ويزبكي . غير ان المشايخ النكديين لم يدخلوا في هذا الانقسام . وعمّ هذا الانقسام الامراء الشهابيين واللمعيين والنصارى اللبنانيين . وصار اسم يزبكي علماً جنسياً لبني عماد وبني تلحوق وبني عبد الملك ومن والاهم . وكان زعيم اليزبكية بنو عماد وزعيم الجنبلاطية بنو جنبلاط»[١٧] . نقول لقد عمّ هذا الانقسام الحزبي جميع اللبنانيين في عهد بشير الثاني على باختلاف طوائفهم وشمل السنة في هضاب صيدا والشيعة في كسروان وبلاد جبيل . ولم يخرج عنه سوى بني نكد الذين آثروا ان يلعبوا دور « بيضة القبّان » بلغة ذلك العصر . ولم يزل ذلك في عهدنا بين الدروز . وما زال بين النصارى حتى اوائل القرن العشرين . وحدث مثل ذلك من قبل بين الشقراويين وبين الصمديين في قرية عماطور وما جاورها من الشوف . كما جرى بعده في عهد القائمقاميتين في المتن بين الامير بشير عساف وبين الامير بشير احمد اللمعيين وعمّ النصارى والدروز ايضاً ولكنه مات بموتهما[١٨] . ولطالما دعت الحال في ذلك العهد وبعده الى انقلاب بعضهم من حزب الى آخر لاغراض في النفس تشفياً من خصوم معينين او الى انشقاق اسرة بين الحزبين كما فعل الارسلانيون والتلاحقة وغيرهما من الاسر القوية . ولم يهدف المتحزبون الى برنامج معين يطالبون به ويحاولون تحقيقه. ولكنهم قصدوا التضامن في السراء والضراء وتوخوا من جراء انضمامهم مساعدات مادية ومعنوية ضمن الحكومة وخارجها وفي جميع اوقات الضيق . وجرى مثل هذا بين اسر معينة وبقطع النظر عن الطائفة التي انتموا اليها . فاسرة البستاني المارونية في دير القمر تآخت مع اسرة حماده الدرزية في بعقلين واسرة عبد الصمد الدرزية في عماطور وكذلك بنو نعمه النصارى وبنو ابي شقرا الدروز .

(١٧) اخبار الاعيان ص ١٣٦–١٣٧ .

(١٨) لبنان ويوسف بك كرم للخوري اسطفان البشعلاني ص ٢٢٢–٢٢٤ .

وكثيرًا ما قطع هذا التآخي حدود المقاطعات فضم اسرتين في مقاطعتين مختلفتين كما جرى بين اسرة بني حسن الدرزية في بعذران الشوف وبين اسرة بني مجاعص النصرانية في الشوير في المتن . ومما يروى من هذا القبيل انه عندما غرّم الامير بشير الثاني الشقراويين الدروز في عماطور بمبلغ كبير من المال وتعذر عليهم جمعه بكامله هب « ابناء عمهم » بنو نعمه النصارى في دير القمر لدفع الباقي .

سياسته الداخلية وكان الزعماء اللبنانيون على ما بهم من حذق ومقدرة واخلاص للوطن لا يفترون منشقين بعضهم على بعض . فالشهابيون منهم كانوا يطمعون بالحكم كل بدوره فيدسون الدسائس على من هو في الحكم منهم ويؤلبون رجال الاقطاع عليه فيقابلهم هو بالمثل وتعم الفتنة البلاد باسرها . وان هم اخلدوا للسكينة اثارهم احد الولاة من حولهم وابتز منهم المال المستعجل والوعد بغيره . ولم ينج بشير الثاني من شيء من هذا . فانه ما كاد يستلم ازمّة الحكم في البلاد حتى اضطر ان يقاتل الامير يوسف فترة من الزمن ثم الاميرين حيدرًا وقعدان الشهابيين ثم ابناء الامير يوسف فالامراء سلمان وسيد احمد وفارس قعباس الشهابيين . وطال امد هذه المزاحمة ولم تنتهِ قبل السنة الخامسة والثلاثين من حكم بشير ا وادت الى تنازله عن الحكم احيانًا ودخوله سجن عكة مرة واحـدة وفراره الى حوران مرة اخرى والتجائه الى مصر .

وادرك الامير ان الامراء والاشياخ يشتغلون كل لمصلحته ولو ادى تحقيقها الى خراب عام وان مصلحته ومصلحة لبنان تقضيان بتحطيم الرؤوس الكبيرة وبتوطيد السلطة المركزية وبالتالي بربط الشعب اللبناني بشخص حاكمه مباشرة . وكان سلفه ونسيبه الامير يوسف قد شعر بشيء من هذا وبدأ بتحطيم النكديين فرأى بشير ان يبدأ بهم ايضاً . فـاتفق مع الجنبلاطيين والعماديين على ذلك واستدعى اليه اولاد الشيخ كليب النكدي الى دير القمر سنة ١٧٩٧ . ولما دخلوا مجلسه خرج من القاعة واغلق الباب فاسرع الشيخ بشير جنبلاط والمشايخ العمادية ودخلوا القاعة وجعلوا يخرجونهم واحدًا واحدًا ويقتلونهم ضربًا بالسيف وكانوا خمسة . ثم ارسل الامير اعوانًا الى عبيه يقبضون على اولاد الشيخ بشير النكدي ففروا واختبأوا فارسل اعوانًا احضروهم اليه ووضعهم في السجن وبعد قليل دخل اليهم المشايخ العمادية وقتلوهم وكانوا اربعة . واما الصغار من النكديين فهربوا مع الشيخ سلمان الى دمشق . فضبط الامير املاك الجميع وابقى له جزءا واعطى الباقي للقاتلين . ولما علم الجزار بذلك

استدعى الصغار اليه وكانوا ستة عشر ذكرًا وعين لهم نفقة وابقاهم عنده[١٩] . ومنذ السنة ١٧٩٩ بدأ الامير بمناوأة العماديين متكلًا في ذلك على معونة الجنبلاطيين وما فتئ حتى افقرهم وابعدهم عن البلاد الى وادي التيم وحوران وعكة ومصر . قال الشدياق :« وسنة ١٨٠٨ سار الشيخ فارس العماد الى مصر لضيق معاشه وتبعه الشيخ علي وتقربا الى والي مصر » وقال ايضاً : « وسنة ١٨١٩ غضب الامير بشير الشهابي على اليزبكية فارسل لهم اعوانًا يثقلون عليهم بالعلايف والعلايق ففروا من البلاد وتبعهم النكدية واخيرًا قدم اليهم الشيخ علي من مصر »[٢٠] .

وبعد ان اضعف الامير العماديين عاد الى الجنبلاطيين فاتهم كبيرهم الشيخ بشير جنبلاط بانه اشار على الامير حسن الشهابي ان يقتل عمه الامير حيدرًا ويتظاهر بالاسلامية فيتولى عوض الامير بشير الشهابي نفسه . ولما اعتقل الامير حسن وارسل الى عكة فالاستانة سنة ١٨١٨ خشي الشيخ بشير العاقبة وشرع يحتـاط للامر فتظاهر بالاسلام وبنى جامعاً له في المختاره حتى اذا قضت الظروف بوفوده على الامير قدم اليه برجال كثيرين . فبدأ الامير باضعافه ماليًا وطلب منه سنة ١٨٢٢ سبع مئة وخمسين الف غرش اسعافاً . فاعتذر الشيخ بشير . ولما لم يقبل الامير اعتذاره اداها وجلًا . ثم رحل الشيخ من المختارة الى جباع متظاهرًا بانه يريد الصيد وارسل رسلًا الى الامير يستعطفه برجوعه كما كان . فاجابه الامير الى سؤله وطلب منه الف الف غرش . فارتضى الشيخ بدفع نصفها . وبعد دفعه هذا النصف طلب الامير الباقي . فالتمس الشيخ تركه فلم يُجب الى ذلك . فقام الشيخ الى جباع ثانية واقام فيها ثلاثة اشهر ولما ينس قام الى البقاع فراشيا واجتمع اليه فيها بعض عناصر المعارضة من الوجوه اللمعيين والارسلانيين والشهابيين وقر قرارهم ان يطلبوا تولية الامير عباس اسعد الشهابي . فتوسل الشيخ بذلك الى عبدالله باشا والي صيدا ولكنه لم يفلح . وعندئذٍ توسل اليه ان يأمر برجوعه ومن معه الى بلادهم آمنين . فاجابه الباشا الى ذلك . ولدى عودة الشيخ الى مقره في المختاره سنة ١٨٢٣ ارسل الى الامير في بتدين يستأذنه بالحضور ويطلب منه صفاء الخاطر عليه . فاجابه الى ذلك . فحضر الشيخ بنحو الفي رجل ابقاهم خارج بتدين ودخل الى القصر بشرذمة منهم . فأمر الامير اعوانه ومماليكه وعبيده ان يصطفوا له في صحن الدار . فمرّ الشيخ بينهم وجلًا خايفاً من الغدر به . ثم دخل على الامير مسترحماً

---

(١٩) اخبار الاعيان للشيخ طنوس الشدياق ص ١٤٩–١٥٠ .

(٢٠) المؤلف نفسه ص ١٤٠–١٤١ .

طالباً العفو . فطيّب الامير قلبه وخلع عليه . ثم استاذن الشيخ وعاد الى المختاره فبلغه ان الامير تكدّر من كثرة الرجال الذين اصحبهم معه الى بتدين . فحضر مرةً ثانية بنفر قليل. فطيّب الامير قلبه ووعده بالعود كما كان. ثم كتب اعلاماً برجوع اصحاب الشيخ الى اوطانهم والا فيقعون تحت الغضب . فانفضوا عنه . ولما فارقته احلافه خاف ونهض الى البقاع ليلاً بمايتي نفر ومعه الامراء الارسلانيون ثم انطلق الى حوران ونزل عند العرب الفحلية والمسلوط. فضبط الامير ارزاقه . وبعد ذلك بقليل عاد الشيخ بشير الى اقليم البلان فبعلبك وعكار . وارسل يسترضي العماديين فارتضوا واتفقوا مع الجنبلاطيين على ارجاع الشيخ الى المختاره . وحزّبوا معهم جماعة من الامراء الشهابيين واللمعيين . وكتبوا الى الشيخ بشير يستدعونه . فنهض من عكار الى كسروان فالمتن فالشوف ومعه عـدد كبير من الرجال من الحزبين الجنبلاطي واليزبكي . ووصل الى المختاره في اوائل السنة ١٨٢٤ . ثم هجم برجاله على بعقلين فبتدين واقتتل مع عسكر الامير ثلاثاً اهمها موقعة السمقانية[٢١] . ولما لم يفز بطايل انهزم بمن معه الى اقليم البلان . ولدى وصوله الى قرية مجدل شمس افترق الشهابيون عنه الى حمص اما هو واعوانه الجنبلاطيون واليزبكيون فانهم ذهبوا الى حوران . فادركهم عسكر دمشق واخذ قائده يخادعهم بان يسلموا لوالي دمشق فانخدعوا . ولدى وصولهم الى دمشق امر واليها بتقطيع الشيخ علي العماد بالسيوف وطرح الباقين في السجن . وعندئذ طلبهم والي صيدا عبدالله باشا من والي دمشق فارسلهم هذا الى عكة وامر وزيرها بحبسهم . ثم رأى ان يهدد بشيرًا بهم فأخرج الشيخ بشيرًا من الحبس وارسل له حـلة وطيب قلبه . فبلغ الامير بشيرًا ذلك . فكتب الى العزيز يخبره بواقع الامر . فكتب العزيز الى عبدالله باشا ان يقتل الشيخ بشيرًا ففعل ثم قتل الشيخ امين العماد ايضاً . وتوفي ولدا الشيخ بشير قاسم وسليم في الحبس في عكة . وهكذا تشتت الجنبلاطيون وضبط الامير جميع محاصيلهم[٢٢] .

ورأى الامير الشهابي الكبير ان يوجد من يمثل السلطة المركزية في بعض الجهات النائية من البلاد ليشعر الاهلون بها ولكي يراقب هو عن كثب سلوك رجال الاقطاع ويحد من سلطتهم . فجعل من ابن اخيه الامير عبدالله حسن نائباً عنهِ في كسروان . فكان هذا ينقل اوامر الامير الى رجال الاقطاع ويسهر على تنفيذها ويساعد في حل المشاكل ويسهل جباية

---

(٢١) اطلب تفاصيلها في الجواب على اقتراح الاحباب لمخائيل مشاقه – خط .

(٢٢) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ١٢٨–١٣١

راجع ايضاً كتابنا : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٦٤–٦٧

الضرائب . ولا يزال الكثير من اوامره الى رجال الاقطاع في كسروان وبلاد جبيل محفوظاً في المتحف الوطني اللبناني في بيروت . وفعل الامير بشير مثل هذا في بلاد جبيل فعين ابنه قاسماً اميرًا عليها وجعل ابنه خليلًا اميرًا على البقاع . فهبّ شاعر القصر يهنئها بقصيدة متوسطة سنة ١٨١٠ . ومما قاله فيها عن الامير الاب وولديه ما يلي :

كل المعالي لديه جمة جمعت | لذاك اضحى على الاشبال يقسمها
فقسمة القاسم المفضال لا برحت | تعلو وتزداد والمولى يعظمها
كذا العلا لخليل الله ما فتئت | تعاد خلعتها والعز يقدمها
يا من بانواره ازهى البلاد لذا | ارخت لا زلت طول الدهر تحكمها[٢٣]

اما الامير امين فانه بقي الى جانب والده يعاونه في الحكم ويحل محله عند الاقتضاء ويقوم ببعض المهمات الخارجية .

وكان السفر شاقًا والطرق غير امينة . وكانت الخفارة تفرض في بعض المواقف في خان الحصين والمديرج في الطرق الجبلية وفي خان الناعمة وجونية وجبيل في الطرق الساحلية . فأبطلها الامير الكبير سنة ١٨١٢ واذن ان تسير القوافل والتجار على جميع الطرق بالامان والسلامة دون ان يغرموا بشي.. فكان ذلك رحمة عظيمة للناس[٢٤]. وكثيرا ما كان الذهاب الى دمشق من الامور الشديدة الخطر حتى شاعت بين اللبنانيين اغنية كانت تردد في الاعراس مطلعها :

ارقصي يا مليحه | ارقصي ولا تبالي | بدف المخشخش | بنقل الجمالِ
جوزك يا مليحه | راح عالشام وحده | جوزك يا مليحه | بو زيد الهلالِ

ولم يكن السفر في البحر شائعاً بين اللبنانيين آنئذٍ فكانوا يخشون هوله ويقولون عمن سافر الى مصر انه سيكابد اثقال السير في برين واهوال السفر في بحرين .

فاهتم الامير لهذا الامر وعزم على تأمين البلاد فضرب بيد من حديد كل من أخلّ بالامن . وكان عظيم الهيبة وقورًا شديد البأس لا يستطيع الناظر اليه ان يتفرس فيه طويلًا. فاستتب الامن في البلاد وروى الناس ولا يزالون احاديث غريبة بهذا المعنى منها ان امراة كانت سائرة في وادي القرن والليل حالك فالتقى بها احدهم وسالها عن مسيرها في ذلك

(٢٣) منشورات مديرية الآثار : ديوان المعلم نقولا الترك لفؤاد افرام البستاني ص ٢٣٥-٢٣٦
(٢٤) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص ٥٨٠، اطلب ايضاً دواني القطوف لعيسى المعلوف ص ٢٥٧

الظلام الدامس فقالت « ان ابا سعدى سائر معي » . وهو احد القاب الامير . ومنها ما تغنى به شاعر القصر آنئذٍ :

اميرٌ سما الامراء قدرًا وقـد علا	على كل والٍ في الوجود وحاكم
به قطرنا قد فاق بالقدر وارتقى	على كل قطر في الوجود وعـالم
بعدلٍ وقسطٍ وايمانٍ وراحـةٍ	وشرع بجسم الزور والبطل قايم
وعيشٍ هني ارغـدٍ واستكانةٍ	وصفوٍ من الاكدار صافٍ وسالم
حماه حمىً يوقي به كل ملتجٍ	ويومن فيـه كل خطاب مداهم
نعيمٌ وسيمٌ مستطـابٌ ومامنٌ	منيعٌ ومـاوى للكماة الضراغم
فولاه ارقى سيـد فاق سامياً	ولاة الورى طرًا وكل الاعـاظم
بنور شهاب الكون باهت بلادنا	بشير لها في هـدم طود المظالم[٢٥]

وأصبح لبنان في حد قول هذا الشاعر « حمى يوقي كل ملتجٍ » في طول بر الشام وعرضه ففي السنة ١٨٠٤ التجأ الى لبنان زعماء الانكشارية في حلب لخلاف وقع بينهم وبين واليها ابراهيم باشا قطر اغاسى[٢٦] . فاكرمهم الامير وسعى للتوفيق بينهم وبين الوالي . وفي السنة ١٨١٢ وفد على الامير الشيخ حسين افندي المرادي مفتي دمشق . وكان قد وقع بينه وبين زميل له ابن المحاسنه نفور وبغضاء . وكان عدوه هذا له « قول عنـد سليمان باشا » فخشي حسين افندي غدره وخرج من دمشق والتجأ الى الامير في بتدين . فأكرمه الشهابي الكبير وابقاه عنده مدة من الزمن ثم وفّق بينه وبين خصمه واعاده الى دمشق[٢٧] . وفعل مثل هذا مرارًا مصطفى اغا بربر متسلم طرابلس . ففي السنة ١٨٢٤ عندما أمر الباب العالي باعدامه وضبط موجوداته وارزاقه التجأ الى الشهابي الكبير فاسكنه الشويفات ثم ارسله الى مصر واصحبه بالتوصيات اللازمة فاكرمه العزيز واقامه في دمياط . وفي السنة ١٨٣٣ غضب عليه ابراهيم باشا فجاء الى بتدين ملتمساً من الامير ان يستعطف خاطر الباشا عليه ففعل فاعطاه

---

(٢٥) المعلم نقولا الترك . راجع ديوانه المشار اليه آنفًا ص ٢٦٢-٢٦٣ – واطلب ، في ما كان يروى عن الامير الكبير من حوادث اختلط فيها التاريخ بالاساطير ، كتاب فؤاد افرام البستاني : على عهد الامير ، بيروت ، ١٩٦١

(٢٦) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص ٤١٦

(٢٧) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٥٨٠ – راجع ايضاً ديوان نقولا الترك ص ١٠٥.

الباشا الامان واعاده الى طرابلس[٢٨] . وقل الامر نفسه عن علي بك الاسعد العكاري والامير جواد الحرفوش البعلبكي وغيرهما مما لا مجال لذكره هنا .

وارضى الامير رجال الدين على اختلاف مللهم ونحلهم فعاونوه في بسط نفوذه وسلطانه فجبى لشيخي العقل الدرزيين مالًا خاصًا قدمه لهما وجمعه من جميع رعاياه الدروز والنصارى على السواء[٢٩] . وجعل كلمة البطريرك الماروني نافذة في غالب الاحيان وعاون رهبان هذه الطائفة في تحويل بعض الاديرة الى مدارس فبذل بسخاء في هذا السبيل واستحق شكرهم وولاءهم[٣٠] . ومن ذلك مار يوحنا مارون في كفرحي (١٨١٢) ومار انطونيوس بعبدا (١٨١٥) ومار جرجس الروميه (١٨١٨) ومار يوحنا مارون صربا (١٨٢٨) ومار عبدا هرهريا (١٨٣١) ومار سركيس ريفون (١٨٣٢)[٣١] . وما كاد يسمع في السنة ١٨١٣ باغتيال البطريرك اغابيوس صروف حتى بث العيون والارصاد فقبضوا على الجناة واتوا بهم مقيدين الى دير القمر . واذ قدموهم لدى الشهابي الكبير امر بشنقهم عن ذنبهم فشنقوا حالًا[٣٢] . ولدى وفود البطريرك مكسيموس مظلوم عليه بعد انتخابه سنة ١٨٣٣ اجلّ الامير وفادته وقال له « كثيرًا ما سرّني ارتقاء غبطتكم الى المقام البطريركي . ويحق لطائفتكم كما يحق لي ان افتخر ببلادي لانها حائزة على رجل جليل الصفات عالم علامة عالي الهمة غيور نظير غبطتكم » . ثم اصدر الامير امرًا باعفاء قرية عبرة ملك مدرسة عين تراز من اداء ما يترتب عليها من الاموال للحكومة[٣٣] . وادى هذا كله بطبيعة الحال الى امتنان رومة فكتب له البابا بيوس السابع في العاشر من شهر شباط سنة ١٨١٧ يشكر له عطفه على الموارنة وسماحه لهم « بالاعتراف بحقايق الايمان الكاثوليكي » دون اي مانع . وبعد ذلك بثمانية عشر عاماً كتب له البابا غريغوريوس السادس عشر يشكر له حمايته التقليدية للايمان

(٢٨) راجع مجلة المباحث لجرجي يني ج ١٤ ص ٨٨ وتاريخ سورية له ايضاً ص ٤١٨–٤٢١ . راجع ايضاً كتابنا المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٦٢–٦٣

(٢٩) المحفوظات اللبنانية .

(٣٠) راجع ما ورد في ذيل كتاب هنري غيز المشار اليه آنفاً ج ٢ ص ٣٠٧ وهو مقال في الامير بشير للمسيو اوجين بوره .

(٣١) راجع محاضرة الاستاذ فؤاد افرام البستاني في التعليم في لبنان في مجلة الندوة اللبنانية ٢٥ كانون الاول سنة ١٩٥٠ ص ١٧٣

(٣٢) ديوان المعلم نقولا الترك ص ١٠٠–١٠١

(٣٣) مختصر تاريخ طائفة الروم الملكيين لمجهول طبع بيروت سنة ١٨٨٤ ص ٨٨–٨٩

الكاثوليكي ويمدح تقبله لهذا الايمان لاول مرة فيما يظهر ويهدي اليه صليباً وايقونة[٣٤].
ولقد برّ رجال الدين الكاثوليكي الامير فأحسنوا الطاعة اليه ورفقوا به في ايام محنته وتحرّوا محابه كما سنرى في حينه.

واحب الامير العمران فرمم الجسور وانشأ بعضها وجلب مياه نبع الصفا الى بتدين وعطف على العلم والادب فتقبل مبدأ التلقيح للوقاية من الجدري وشجع الناس عليه وارسل بضعة من الشبان اللبنانيين الى مصر ليدرسوا الطب الحديث في مدرسة القصر العيني منهم ابراهيم النجار ويوسف الجلخ وأوفد الشيخ بشاره الخوري والخوري حنا حبيب الى طرابلس ليتفقها على اشياخها. وجمع الشعراء والادباء في ديوانه وعقد لهم المجلس ونظم ابياتاً واقترح عليهم تخميسها او تشطيرها او اجازتها. من ذلك صدر مطلع له :

في سفح بيت الدين قد دفق الصفا[٣٥].

وقال المعلم نقولا الترك: «وكان سعادته في كل ليلة من ليالي الشتاء يجمع ندماه ويساهرهم في لعب الورق الذي هو بين غالب ومغلوب من دون وضع دراهم يؤول مآلهـا الى الربح والخسران بل هو اقهار الغالب للمغلوب . وكان سعادته في حين تغلبه على مغلوبه يقترح على المؤلف نظم بعض ابيات وكان له عبداً يفعل»[٣٦] . ومما قاله الترك في هذه المقامة الكانونية : « قال الحازم فهزني الغرام وهيجني الهيام ان ألج مولج الغلمان حيث انتظام الديوان . فلبثت هنيهة ريثما امرت بالعبور بعد التماس الدستور . فعندما ولجت ذلك المحضر المنور رأيت صدراً تصدر بطامة تخجل البدر اذا ابدر قد اشرقت انواره في ذلك المقام على الخاص والعام وهو رابض كالاسد الضرغام . ورايت الخدم وقوفاً والندما صفوفاً ولديهم وريقات يلعبونها فتغلب بعضاً وتحوّل مغلوبها انتعاشاً وقبضاً والامض على المغلوب وانكى اذا قرمه الغالب ضحكا»[٣٧] .
ومن هنا في الارجح رغبة الامير امين في الشعر وتعلمه نظم القوافي .

سياسته الخارجية . وحّد اللبنانيون كلمتهم آنئذٍ بوجوب الاحتفاظ بنظامهم الخاص والمحافظة على حرياتهم فهبّ اميرهم يسعى لتحقيق رغبـاتهم . وانتهز فرصة وجود الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا في بر الشام سنة ١٧٩٩ ففاوضه في ربط لبنـان بالآستانة

(٣٤) تجد نسخة عن الرسالة الاولى في المحفوظات اللبنانية والاصل نفسه للرسالة الثانيـة في هذه المحفوظات ايضاً في ملف رجال الدين .
(٣٥) ديوان المعلم بطرس كرامه ص ٢١٦ و ٢٥٣
(٣٦) ديوانه المشار اليه آنفاً ص ٣٥١
(٣٧) الديوان نفسه ص ٣٥٢–٣٥٣

مباشرة ومنع تدخل حكام الايالات في شؤونه . وكان الصدر بحاجة لرضى العناصر المحلية ولا سيما لبنان ليدفع الضرر الذي لحق بالسلطنة من جراء الحملة الفرنسية على مصر « فالتقاه بكل اكرام وحبه حباً عظيماً لاجل صورته وجسارته واوعده بكل ما طلبه.»[٣٨] ووجه اليه فرماناً بذلك فقال : « وعنه تعالى بعد توريدكم الى الخزينة العامرة المطاوب منكم تصل اليكم الفرمانات العلية والاوامر السنية المفصحة والمعلنة في تفويض البلاد اليكم وتقرير الاقلام والاماكن المرقومة عليكم حسب ما صدر الوعد منا بذلك ورفع ساير التكليف الشاقة عنكم من وزرا عظام وغيرهم ما عدا دفع قلم الميري المربوط في المقاطعات المذكورة والقلمية من قديم الزمان فمتى اديت اموال الميرة والقلمية وبدل الالتزامات كل شيء الى محله والاماكن المذكورة تكون تحت يدك ونظارتك. فبناء على ذلك قد صدرنا اليكم مرسومنا هذا الشريف المنيح .»[٣٩] تسلم الشهابي الكبير هذا الفرمان وبات ينتظر تنفيذه ولكن دون جدوى .

وكان في الوقت نفسه يتجنب الاصطدام بحكام الايالات المجاورة ويبتعد عنهم ما امكنه . وقد ادى به هذا الى الملاينة والمصانعة والمداهنة في بعض الاحيان . مثال ذلك موقفه من التطاحن الذي وقع بين والي حلب وبين رؤساء عساكر الجزار بعد وفاته. فالشهابي ارسل التقادم لمرشح رؤساء العساكر اسماعيل باشا وتقبل خلعة الولاية منه وكتب في الوقت نفسه الى متسلم دمشق انه سيطيع من توليه الدولة ولكنه لن يخضع لاسماعيل لانه خرج على الدولة . واستقبل مرشح الدولة ابراهيم باشا والي حلب وتقبل خلعة الولاية منه وارسل معه من يمثله في حصار عكة على راس مئة فارس . ولكنه على الرغم من هذا عرف كيف يحافظ على هيبته وعند اي حد يقف . فانه عندما علم بقدوم والي حلب عن طريق حاصبيا فصيدا نزل من دير القمر الى صيدا على راس ستة الاف مقاتل وقابل الباشا واعتذر عن مواكبته قائلاً انه بعد ما جرى بينه وبين الجزار أقسم انه لن يواجه وزراء وانه سيمثل في الحرب القائمة بمئة فارس . ثم عاد الى دير القمر[٤٠] . ولم يعتور الشهابي في مواقفه هذه شيء من الجبن او التخاذل . فانه عندما كانت الضرورة تقضي بتدخله تدخلاً فعلياً كان يدفع برجاله الى ساحات الوغى فيرجح الكفة وينال ما يطلب كما سنرى عند الكلام عن سانور والمزة.

(٣٨) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص ٢٠٣
(٣٩) عن الاصل : المحفوظات اللبنانية ملف السياسة الخارجية .
(٤٠) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص٤١٤–٤١٨ و ٤٢١

وكان نديمه وشاعره المعلم نقولا الترك على صلة وثيقة بمصر . فانه زارهـا سنة ١٧٩٩ ومكث فيها مدة ثم عاد الى لبنان . وما ان دخلها نابوليون بعساكره حتى عهد الشهابي الى نديمه ان يعود اليها للمراقبة ففعل وجعل مقره في القاهرة اولاً ثم في دمياط . وكان يدون كل ما يتصل به من اخبار الجيوش وحركاتها وعددها وعُددها ويرسل خلاصة ذلك الى الامير[٤١] . وقبل ان يعود « المعلم » الى لبنان ثانية اسس في مصر علاقات طيبة في اوساط «الشوام» واكثرهم تجار وكتاب دواوين فبقي على معرفـة في شؤون القطر الشقيق وعلى بصيرة في قدر امكانياته الحربية والاقتصادية والسياسية . وكان يميل الى محمد علي الكبير ويقدره حق قدره[٤٢] . ومن هنا في الارجح نشأ ميل الامير الشهابي للعزيز واستعداده للجوء اليه والاعتماد عليه . وبعد ان وطّد العزيز حكمه وأظهر بأسه ورجولته وأصلح ما اصلح اصبح التفاهم بين الرجلين محتماً . واعل بعض الفضل في هذا يعود الى فرنسة صديقة الاثنين معاً والى الفاتيكان الذي رأى من الاثنين في معاملة النصارى في الشرق ما لم يرَه من غيرهما من قبل .

والغريب المستغرب الا يكونا قد اتصلا ببعضهما قبل السنـة ١٨٢٢ فليس بين اوراقها المختلفة اي اثر لاتصال مباشر او غير مباشر قبل هذا التاريخ . وليس في ما نشر من تقارير قناصل الـدول ما يدل على ذلك . وقل الامر نفسه عن النصوص التاريخية التي تعود الى ذلـك العهد . وفي السنة ١٨٢١ وقعت الواقعة بين درويش باشا والي دمشق وبين عبدالله باشا والي صيدا لاسباب نعود اليها فيما بعد. ووقف الشهابي الكبير الى جانب عبدالله باشا فأيد اخصامه في لبنان درويش باشا . واشتد الخصام فاضطر الشهابي الكبير ان يلتجئ الى والي مصر محمد علي الكبير وكتب له بذلك . ولدى ورود الجواب بالقبول في صيف السنة ١٨٢٢ احضر الامير مركباً افرنسياً كان راسياً في ميناء بيروت الى الدامور ونزل اليه مع اتباعـه وولديه خليل وامين . وبعد خمسة ايام وصل الامير وحاشيته الى دمياط فبولاق واقام فيها . واستقبله في بولاق المعلم حنا بحري باسم كتخدا بك . وعند الغروب عاد اليه وسار امامه الى قصر الخزندار في الروضة حيث اجتمع بكتخدا بك ثلاث ساعات وشرح له ما وقع معه في بر الشام فطمأنه وطيب قلبه . وفي اليوم التـالي زار الامير ابراهيم باشا ابن العزيز فاكرمه وجبر خاطره . ثم جاء المعلم حنا وأفهمه ان العزيز امر بقيامه الى بني سويف فذهب اليها واقام في الفشن . وبقي فيها سبعين يوماً . ثم عاد الى بني سويف نفسها فخصه ابراهيم

(٤١) المعلم نقولا الترك لفؤاد افرام البستاني : الديوان المشار اليه آنفاً ص ب – ج
(٤٢) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص ٣٥٠–٣٨٥

باشا بزيارة دامت ساعتين . وبعد ذلك كتب اليه كتخدا بك يخبره بقرب مجيء العزيز الى القاهرة ويطلب اليه ان يعود اليها لمقابلته . ففعل وقابل العزيز في قصره في شبرا واختلى به ساعتين . وقصّ عليه ما جرى له مما ادى به الى الالتجاء اليه . ومما قاله انه كسر درويش باشا وانه لو اراد لملك دمشق بيوم واحد وانه كان بامكانه ان يقاتل عساكر الوزيرين مصطفى باشا ودرويش باشا معاً وان ينتصر عليهما ولكنه ابى ذلك امتثالاً لاوامر الدولة . فسُرّ العزيز به وقال له: هكذا تكون اصحاب المروة . ثم اضاف: اني ما طلبت من الحق طلبة الا واستجاب دعائي وقد طلبت ان اراك فسبحانه تعالى ما حرمني ذلك ثم قال : ان مصلحتي تمت وان شاء الله قريباً تتم مصلحتك وأصر عليه ان يراه كل يوم . ثم قبّل الامير الاتك وعاد الى مقره في اثر النبي . وفي اليوم التالي زاره العزيز في اثر النبي وتناول الطعام عنده . ويوم الجمعة دخل الامير على العزيز في ديوانه في القلعة وحوله اعيان مصر . فاكرمه العزيز وقال لقاضي القاهرة: هل عرفت هذا الرجل؟ فطلب العفو والقى السلام . فقال العزيز: هذا كبير عشائر جبل لبنان وهو يحكم على مئة الف مقاتل . وكان بامكانه ان يحارب الوزيرين اللذين يحاصران عكة ولكنه ابى ان يخالف اوامر الدولة . وبقي الامير يتردد على العزيز طوال اقامته في القاهرة كل يوم مرة . وما زال في القاهرة حتى عفا الباب العالي عن عبدالله باشا وابقاه في منصبه كما كان . ولدى وصول العفو استدعى العزيز الامير وقال له: لقد صرت عندي بعزة ابني ابراهيم واني لم اقم بهذه المراجعات الا لاجلك انت فقط ثم امره ان يكون على اهبة السفر وان ينقل العفو الى عكة بنفسه وان يتعاون وعبدالله باشا لارضاء الباب العالي بدفع المال المتوجب على هذا الاخير ففعل كما سنرى[٤٣] .

ومنذ ذلك الحين بقي الشهابي الكبير على صلة وثيقة مع العزيز يتفهم سياسته ويسعى ما امكنه لمعاونته . ففي اواخر تشرين الاول من السنة ١٨٢٣ نرى الامير منهمكاً في استخراج الفحم الحجري من قرنايل لبنان وفي انزاله الى ميناء جونية لتصديره الى مصر سدًّا لحاجات العزيز[٤٤] . وفي اواسط اذار من السنة التالية ١٨٢٤ نرى العزيز يخبر عبدالله باشا بانه كان قد وجه سؤالاً الى الامير بشير قبل خروجه من مصر وعودته الى بر الشام يستوضح فيه عدد الجنود الذين يتمكن الامير من جمعهم وارسالهم اذا اقتضى الامر وان الامير اجابه بانه عند اقتضاء الحال يقدم عشرة الاف رجل بقيادة ابنه الاكبر ــ يقول هذا

(٤٣) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٢٣-٧٤٦

(٤٤) المحفوظات الملكية المصرية لاسد رستم ج ١ ص ٥٨

ثم يطلب الى الباشا ان يتصل بالامير ويطلب اليه ان يبر بوعوده بمناسبة ظهور قضية المورة. وكتب العزيز بمثل هذا الى الامير نفسه[٤٥]. وفي اواخر السنة نفسها واوائل ما بعدها ١٨٢٤— ١٨٢٥ نرى العزيز يعنى بمصلحة الشهابي الكبير في بر الشام فيطلع على تقارير مخبريه ويستمع لاقوال الامير امين ابن الامير بشير ثم يكتب الى عبدالله باشا بوجوب مساعدة الامير الكبير للقضاء على اخصامه في لبنان ولا سيا الشيخ بشير جنبلاط الى ان يقول في اواخر كانون الثاني من السنة ١٨٢٥ بانه أمر بتجهيز ستة الاف من الفرسان والمشاة بامرة طوسون يكن بك لمساعدة الامير الشهابي الكبير على خصمه[٤٦] . وفي السادس عشر من آب من السنة نفسها كتب الامير الى العزيز يشكر له عطفه على الامير امين ويقول « وقرر لنا عبدكم ولدنا ما صدر به امر سعادتكم ولقد تلقيناه بالاطاعة والامتثال. وكلما تصدر به اوامر دولتكم فهذا العبد واقف لها على قدم الانقياد لانني عاهدت نفسي على دوام امتثال اوامر عطوفتكم الكريمة . وقيدت ذاتي بالاطاعة والانقياد لما به ارادة عنايتكم الوسيمة »[٤٧] . وهكذا فيكون الكبيران في مصر وفي لبنان قد تفاهما تفاهماً سياسياً عسكرياً منذ السنة ١٨٢٣ وهو ما احسّ به الى حد ما المسيو هودر الفرنسي الذي امّ القاهرة ليعقد تفاهماً بين وزارة بولنياك وبين العزيز للسيطرة على الجزائر . ولكنه رأى ان هذا الحلف لم يربط لبنان بقدر ما ربطته فرنسة وذلك للفارق الديني الذي كان يفرق بين الدروز واميرهم والنصارى من جهة وبين محمد علي من جهة اخرى. هذا على الرغم من ان الامير الدرزي بشيراً كان في نظره لا يزال نصف مسيحي[٤٨] .

(٤٥) المحفوظات نفسها ج ١ ص ٥٩—٦٠

(٤٦) المحفوظات نفسها ج ١ ص ٦٢—٦٦

(٤٧) المحفوظات نفسها ج ١ ص ٦٧

(٤٨) Douin, G., *l'Expédition d'Alger*, pp. 216-217

الفصل الثاني

الايالات الشامية

١٨٠٤-١٨٣٢

نظام الحكم

كانت الديار الشامية في مستهل القرن التاسع عشر مقسمةً الى اربع ايالات: حلب ودمشق وطرابلس وصيدا . وكل ايالة مقسمة الى سناجق والسناجق الى متسلميات في غالب الاحيان . وعلى راس كل ايالة والٍ يعينه السلطان لسنة واحدة بدؤها اول اذار شرقي وقت صدور « التوجيهات » بلغة ذلك العصر . وكان يحق للوالي ان يسعى لتجديد ولايته سنة فسنة . وقضت القوانين المرعية الاجراء ان يرأس كل سنجق بيك من البكوات وان ينوب عن الوالي في كل مدينة متسلم . امـا الريف فانه كان مقسماً الى زعامات وتيارات وموزعاً على سباهيين وجبهجيين وغيرهم مدة حياتهم . وكان على هؤلاء ان يلبوا الدعوة للحرب بشروط معينـة وعلى نفقتهم الخاصة وان يقوموا باعباء الحكم في مقاطعاتهم[٤٩] .

وكان يحيط بالوالي في عاصمة الايالة رؤساء الجند وهم قواد الفرق التي كانت تشكل حامية الايالة . واكثر هؤلاء من الانكشارية . وكانوا في ذلـك العهد المتاخر من تاريخهم متزوجين يقيمون مع عيالهم في احياء معينة من البلدة كحي الفرافرة في حلب وسوق ساروجه في دمشق . وكان لـكل فرقـة ضباط يسمون الوجاقلية وكبيرهم الاغا اي رئيس الفرقة .

---

(٤٩) von Hammer, *Geschichte*..., p 57, 476.
von Hammer, *Staatsverfassung*..., p 337.
d'Ohsson, *Tableau Général*..., VII, 372.
محمد علي باشا الى محمد شريف باشا : المحفوظات الملكية المصرية ، ج ٣ ، ص ١٥٩

ومن اجتماعهم يتالف ديوان الوالي . ولهذا الديوان سلطة واسعة اذ ليس بمقدور الوالي ان يبرم امرًا هامًا الا بموافقة الاعضاء رؤساء العساكر . واذا وقع خلاف بينه وبينهم رُفع للاستانة للفصل فيه . وكان لهؤلاء ان يطلبوا عزل الوالي اذا شاؤوا .

وكان لدى الوالي في غالب الاحيان ايضاً عدد من الجنود غير النظاميين « باش بوزق » يتناسب ومقدرته على الانفاق . منهم الكردي القريب والاناضولي والارناؤوطي البعيد والمغربي وابن البلد . فينتظمون فرقاً بتفاهم شخصي بين كل فرد منهم وبين قائد فرقته . وهذا القائد يتولى جميع امورهم على نفقة الوالي . وكان الوالي يوزعهم داخل ايالته حيث تقضي الحاجة . فسليمان باشا مثلاً ابقى قسماً كبيرًا منهم في مرجعيون على مقربة من جبل عامل نظرًا لغليان اهله آنئذٍ واخلالهم بالامن[٥٠] .

وكان يحدق بشخص الباشا عدد من المماليك منهم التوتونجي باشي وهو رئيس الخدم الذين يقدمون التبغ والقهوجي باشي والقفتان اغاسي والابريقدار والشمعدان اغاسي والميجو باشي وهو رئيس من يعنى بالضيوف والمهردار والدربندار والاختيار اغاسي وهو صاحب المفاتيح والقواس باشي وباش جاويش ايج اوغلان وهو رئيس الغلمان. والحرم اغاسي والصفرجي باشي. اضف الى هؤلاء الاغاوات اصحاب الكاركات السلحدار والجوقدار والبيرقدار . ثم اصحاب الوظائف واهمهم الكتخدا والخزينه دار والصراف وعدد كبير من الكتاب[٥١] .

ويقول المعلم ابراهيم العوره احد هؤلاء الكتاب في عهد سليمان باشا والي ايالة صيدا وايالة طرابلس انه في السنة ١٨١١ رتب الوالي امر المتسلمين والكتاب والصيارفة في هاتين الايالتين فجعل مصطفى اغا بربر متسلماً على طرابلس واللاذقية ومحمد اغا خزينه دار زاده وكيلاً عنه في اللاذقية وحسين اغا احد مماليك الجزار امين جمرك اللاذقية وعلي بك الاسعد حاكماً على عكار والامير بشير الشهابي حاكماً على لبنان واوزون علي اغا متسلماً على بيروت وامين جمركها وعلي اغا الصوري متسلماً على صيدا وعلي اغا اباظه متسلماً على جباع وموسى اغا شركس متسلماً على مقاطعة الشقيف وابراهيم اغا الكردي احد رؤساء العساكر حاكماً على مرجعيون وتبنين وهونين وساحل قانا وسليمان اغا اباظه متسلماً على صور واحمد عبد العال وكيلاً في ساحل عكة ونهر المفشوخ والحاج موسى ابو ريا متسلماً على الشاغور والجبل وترشيحه ومحمد اغا احد مماليك الجزار متسلماً على شفا عمر وتوابعها وسليم اغا ابو سيف احد

(٥٠) تاريخ سليمان باشا لابراهيم العوره ص ١٥٧

(٥١) تاريخ سليمان باشا للمؤلف نفسه ص ١٥٨-١٦٤

مماليك الجزار متسلماً على الناصرة وعمر العدوي وكيلاً عنه على قراها . اما مزارع الناصرة فانها كانت بالتزام الخواجه انطون كتفاكو قنصل النمسه في عكه . وكان ساحل حيفا وعتليت بالتزام الشيخ مسعود الماضي . وجعل الوالي محمد اغا ابو نبوت حاكماً على غزة ويافة والرملة واللد فأقام في يافة وعين وكلاء عنه في سائر انحاء منطقته. وكان له ان يعزلهم ويوليهم دون استشارة الوالي . وعين سليمان باشا كاتباً في اللاذقية عبد الله الياس وباشكاتب في طرابلس المعلم نعمة الله غريب وكاتباً عربيا في طرابلس المعلم وهبه صدقه وكاتباً لدى علي بك الاسعد المعلم نصرالله نوفل وكاتباً في بيروت المعلم ايوب نصر الله وصرافاً فيها المعلم ميخائيل ساروفيم وكاتباً في صيدا نخله مارون وصرافاً فيها جبور القرداحي وهام جرا[٥٢] .

وجرى في الارجح مثل هذا عيناً في ايالتي حلب ودمشق. فسجلات المحاكم الشرعية في هاتين الايالتين تحفظ الكثير من البيولردات الصادرة عن والي الايالة التي تبين هذا الامر بيد انه ليس لدينا من اثار كتابها او موظفيها ما خلفه لنا المعلم ابراهيم العوره عن ايالتي صيدا وطرابلس وبالتالي فانه ليس بامكاننا ان نعين الاسماء والوظائف في هاتين الايالتين الداخليتين كما فعلنا لطرابلس وصيدا[٥٣] .

وقضت قوانين الدولة آنئذ ان يقترح قاضي عسكر الاناضول تعيين من تتوفر فيهم الشروط اللازمة لتولي القضاء في الايالات الشامية الاربع فتصدر بذلك فرمانات رسمية عن عاصمة السلطنة ويجلس للقضاء كل سنة وفي كل من حلب ودمشق وطرابلس والقدس «مولى خلافة » من علماء الاتراك . ويقوم هو بدوره بتعيين من ينوب عنه في سائر مدن الايالة التي وُلّي القضاء فيها . وقل الامر نفسه عن الافتاء . فانه كان يتولى الافتاء في كل من حلب ودمشق مُفتون اربعة من المذاهب الاربعة يجيبون عما كان يلقى اليهم من المسائل المشكوك في احكامها . اما في طرابلس وعكة فانه لم يكن فيها سوى مفتٍ واحد بموجب المذهب الشافعي في غالب الاحيان . ولم يكن للتقاضي رسوم معلومة ولا مرتب محدود . بل كان يجب على كل قاضٍ ان يتقاضى عن كل دعوى ما يقدره هو من الاجر . واذا كان متورعاً فانه لا يطلب اجرًا معيناً بل يكتفي بما يعرضه ارباب القضايا . وكان يحق لغير المسلمين ان يترافعوا في القضايا الشخصية التي تقع فيما بينهم امام رؤساء دينهم . واذا اختلفوا في ذلك عادوا الى قاضي الشرع .

---

(٥٢) المؤلف نفسه ص ١٥٦–١٥٨ و ١٦٥–١٦٦

(٥٣) تجد في كتابنا الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا وفي الجزء الاول منه ما يكفي لاثبات ما ذهبنا اليه اعلاه، ولكن للسنة ١٨٣١–١٨٣٢

واقع الحال

وانغمس آل عثمان بالملذات والتهوا عن الحكم والادارة ونكبوا بفقدان الرجولة فسقطت هيبتهم من عيون الانكشارية وبدأ هؤلاء يولون من ابناء عثمان من يشاؤون . ثم تلاهى هؤلاء ايضاً عن وظائفهم ففقدوا صفاتهم الحربية القديمة واصبح همهم الوحيد ابتزاز الاموال فعمت الرشوة مصالح الحكومة باسرها واصبحت الوظائف تباع وتشرى . فاضطر الولاة ان يبتاعوا وظائفهم . وكان الواحد منهم لا يوفق الى تجديد مدة ولايته دون ان يرسل الى الآستانة ما يرضي به رؤساءه فيضطر والحالة هذه ان ينظر الى وظيفته كوسيلة لابتزاز المال . وكانت مناصب القضاء ايضاً تباع وتشرى وتعرض في اسواق المساومة فترسو الى من يدفع الثمن الاعلى . وكان المولى خلافة لا يعرف العربية فيتكل في نقل اقوال الخصوم على مترجم اصبح هو صاحب القول الفصل . ولم يوفق القضاء في بر الشام في ذلك العهد الى قضاة علماء مما اضطر هؤلاء ان يعودوا الى فتاوي العلماء للفصل في القضايا الماثلة . وكانت على هذه الفتاوى تقوم مستندات الدعاوى ، الشيء الذي اكثر الافتاء في العصر العثماني وعدد انواعه .

اما عن الجند فحدث ولا حرج . فالانكشاريون والسباهيون وغيرهم كانوا قد استوطنوا دمشق وحلب وغيرهما من المدن الشامية واستقروا بها فصار لهم صبغة محلية وكثرت مطامعهم ومشاكلهم ولجأوا في غالب الاحيان الى القوة للوصول الى ما كانت تصبو اليه نفوسهم . قال معاصر دمشقي : « انه في كل هــذه المدة لم يكن راحة لابناء السبيل في دمشق لان تعديات الجند كانت كثيرة وذلك لعدم خضوعها للنظام . واذ كان اصحابها اولو السطوة لا يسالون عما يفعلون دخل في سلكها كثير من الاهالي . ثم انقسمت المدينة الى حزبين حزب انكشاري وحزب قبيقولي . وكانت العداوة بينها عظيمة وشديدة . حتى انه لم يمض يوم الا وتحدث فيه مشاجرة . وفي بعض الاحيان كانت تغلق الحوانيت ويجري الدم بين الثائرين. واحياناً كانوا يخربون احياء برمتها . وكانت التعديات على اهل العرض والذمة كثيرة جداً . وكانت المرأة الحسناء لا تجسر ان تخرج من بيتها بدون ان يحرسهـا حارس قويّ وان لم يكن حارس فتلتزم ان تلبس ملابس رثة وتحني ظهرها ليظنها من يراها حيزبوناً . وكان كل صاحب مهنة يصحب اسلحته معه الى محل عمله ليكون على استعداد حتى اذا جد شر ينضم الى حزبه . وكان اهل الذمة بحالة يرثى لهـا . وكثيراً ما وقعت التعديات عليهم . وكانوا يتكيسون باصحاب السطوة من المسلمين لصيانة انفسهم . اما الحكومة فكانت بيد رجل يجلس بباب السرايا يسمونه تفكجي باشي فكان يقضي ويمضي حسب امياله فمن شاء ظلم

ومن شاء رحم غير مختش لوم لائم . وقد قلت بضاعــة المعارف لرواج بضاعة السيوف والعصي » [٥٤] .

وقبيل الفتح المصري تولى الحكم في دمشق والٍ جديد . وقــد كان فيما مضى صدرًا اعظم اعني محمد سليم باشا . وكان قد اشترك في القضاء على الانكشارية في الآستانة وفي تنظيم عسكر جديد فلم يرق تعيينه للاغاوات . وما ان فرض ضريبة طفيفة واجبر الاهالي على دفعها حتى نادى الجميع بالعصيان وكان قد اتى ببعض العساكر الجديدة فظن الانكشاريون وغيرهم انه سيقضي عليهم كما قضى على زملائهم في الاستانة . فتألبوا عليه واخذوا يضربون الطبول ويطوفون في انحاء المدينة . فدخل سليم القلعة مع فرقة من جنوده ولبث الباقون خارجها لقلة العلف فيها . واشتعلت الحرب بين الفريقين ففاز الاهالي على الوالي خارج القلعة وقتلوا اكثر رجاله والتجأ الباقون مع زعيم لهم ، قاضي قران ، الى احد الجوامع القريبة من القلعة وحاصروا به . وامر الوالي بضرب البلد بالمدافع من القلعة . ولكن الانكشاريين والاهالي صمدوا في وجهه واخربوا جانباً من سور القلعة . ولما نفد ما عند الوالي من المؤونة اضطر الى اكل الدواب فنفدت ولم يرَ الوالي نافذة للفرج . وكان زميله في صيدا يغــذي الانكشاريين بدلًا من المحافظة على هيبة الحكم . ولم يكترث زميله الاخر في حلب بما جرى له فاضطر الى التسليم وطلب التأمين فأمنوه فخرج من القلعة الى بيت بالقرب منها . ثم هاج عليه الاهالي بتحريض من الانكشاريين مدعين انه عامل على مكيدة لهم . فدافع عن نفسه اشد دفاع واخيرًا نقب الانكشاريون سقف البيت الذي كان فيه وألقوا عليــه النار فمات حرقًا واخذوا جثته وعرضوها للناس فرجة [٥٥] . ولعله من المفيد بهذه المناسبة ان نذكر انه لم يسبق للدمشقيين ان دفعوا للدولة سوى مال الجمارك على الداخل الى دمشق من خارج اياتها . وكان للدولة على النصارى واليهود في دمشق مال الجزية ومال عنب الكنائس. اما المسلمون فانهم لم يدفعوا شيئاً البتة من الضرائب .

وادّت تعديات الانكشارية وغيرهم من الجند في حلب الى انقسامهــا الى حزبين ايضاً حزب الانكشاريين وحزب الاسياد . وجرى فيها مثل ما جرى في دمشق مما استلفت نظر

(٥٤) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء لنعمان القساطلي ص ٨٦–٨٧

(٥٥) الروضة الغناء ايضاً ص ٨٧ – ٨٨ . مذكرات تاريخية للخوري قسطنطين الباشا ص ٥ و٧ و ٢٢ – ٣٥ و ٣٨ . الجواب على اقتراح الاحباب – مخطوط للدكتور مخائيل مشاقه ص ٢٥٢ – ٢٥٣ نسخة جامعة بيروت الاميركية . كتابنا مصطلح التاريخ ص ١٤٦–١٥٥ . كتابنا المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ١٥ رقم ١١٣٥

الرحالة السويسراني داود بوركهاردت في اوائل القرن الماضي وجعله يفرد له باباً خاصاً في رحلته الى الاراضي المقدسة .

هذا ولم يكن الملا اسماعيل صاحب الحول والطول في حماه سوى كبير الدلاتية وكان قد « قوي في المال وصار عنده عدة شراقات » بلفظ الامير حيدر احمد الشهابي المعاصر .

ولنا في سيرة مصطفى اغا بربر دليل اخر على ما ذهبنا اليه . ولد مصطفى ابن يوسف القرق في طرابلس سنة ١٧٦٧ فتلقب بربرًا وكان له اخ يقال له محمد عزرائيل ! وتوفي ابوهما وهما قاصران فاخذتهما والدتهما وسكنت بهما قريسة برسا من الكوره السفلى بالقرب من طرابلس . ولما شب مصطفى خدم الامير علي الايوبي في الكوره ثم الشيخ رعد صاحب الضنيه وتردد على المشايخ بني زخريا في القويطع . ثم خدم الامير يوسف الشهابي حتى السنة ١٧٨٨ . وبعد هذا عاد الى طرابلس وانخرط في وجاق الانكشارية تحت رئاسة زعيمهم مصطفى اغا الدلبه . وكان بين كبيرهم هذا وبين ابراهيم اغا سلطان زعيم الانكشارية السابق نفور لانه اتى بفئة من الارناؤوط كانت تضر بالبلد . فهاج الاهلون وثاروا وكان مصطفى اغا قد احتشد بعضاً من الشبان فقاتل بهم . ثم سار بزمرته الى عكة واقام بخدمة الجزار فاقامه في بيروت . ولما علم ان عبدالله باشا العظم تولى طرابلس واكثر فيها الجور والاعتساف استأذن وجاء اليها فطرد عبدالله باشا منها وعقد العهود مع بعض الشبان وبعث باحدهم محمد اغا القندقجي لينام في القلعة عند المحافظين فذهب وربط حبلًا بمدفع ودلاه من شراقة القلعة . وكان بربر وجماعته قد كمنوا الى جوانبها فاتوا الحبل ولما صاروا كلهم في اعلى القلعة هجموا على المحافظين وقتلوهم واخذوا يطلقون المدافع علامة على قتلهم . وتولى بربر القلعة . فهرب ابراهيم اغا سلطان واستقل مصطفى اغا الدلبه وما زال الى ان توفي فصار بربر هو الحاكم بامره . وفي غضون ذلك انعمت الدولة بولاية طرابلس على احمد باشا الجزار والي صيدا فارسل الجزار امرًا بتوجيه منصب قايمقامية طرابلس لعهدة بربر اغا . وسنة ١٨٠٨ احيلت ولاية طرابلس الى عهدة كنج يوسف باشا فصدر امره الى بربر ان يسلم القلعة لعسكر الدولة ويستمر حاكمًا في المدينة فأبى بربر واغتاظ الباشا وجاء بالجيوش فحلّ في ظاهر البلدة . ونادى بربر باهل البلد بانه سيحصر في القلعة وان الباشا ينتقم . فهربوا الى الجبل ودخل الباشا البلدة ونهبها وهدم بعض الدور ثم حصر القلعة احد عشر شهرًا حتى نفد الزاد وانهدم بعض سور القلعة ففر بربر منها وسار الى صيدا فاستقبله واليها بالاكرام . ثم ورد الفرمان العالي بقتل كنج يوسف لانه اضر بطرابلس وتقررت الولاية

على سليمان باشا والي صيدا فهرب كنج الى مصر وانعم سليمان على بربر بقيمقامية طرابلس فعاد اليها[٥٦] .

ومع ان سليمان باشا الكرجي والي صيدا وخلف الجزار فيها كان «عادلاً حليماً رفوقاً» فانه لم يُفلح في اصلاح الحال لتكاثر الفساد وقلة الصالحين بين موظفيه . قال مؤرخه واحد الكتاب لديه المعلم ابراهيم عوره : كان عند الوالي عبد اسمه سعيد وقد اشتراه الباشا صغيراً ولما كبر البسه قاووقاً وجعله ايجوسي خادم الدار وكان ياكل من المطبخ وياخذ بدلتين في السنة نظير باقي المماليك . ولما اعتقه سيده وصار اغا واستغنى بالمعاش ازداد شقاوة وارتكب جميع انواع الكبائر من سكر وزنى وفسق . وكان ياخذ ما يريد من الدكاكين واذا اعترضه احد ضربه اما بيده او بالعصا او بالسيف . واخيراً تقدم عدد من اصحاب الدكاكين بالشكوى ولما مثلوا امام الباشا غضب عليهم من اجل سعيد وقال : « تخيبوا يا ارذال . انا مالي سوى هذا العبد اما تستحوا تشتكوا عليه ! » . وكان كتخدا بك علي باشا اعظم من الباشا يخيف الخلق ويرهقهم . والثالث بعد الوزير كان المعلم حاييم اليهودي الذي قبض على زمام الامور وفعل كيفما شاء . ومن يقول ان حكم اليهودي امر هين . والرابع بعد الوزير كان عبدالله باشا ابن الكتخدا والخامس حسن اغا الخزينه دار صهر عبدالله باشا والسادس عبدالله اغا حرم اغاسى والسابع السكبان باشي ضابط البلدة والثامن الاوضهباشي والتاسع حسن اغا قرنباس اوغلو ايجوقدار فهذا جعل نفسه وزيراً ثانياً والذي لا يرشيه او لا يهابه يقع في بلاء عظيم . والعاشر الطوبجي باشي وهذا ايضاً جعل من نفسه وزيراً اخر بل اعظم من ذلك اذ انه كان يقول انه بامكانه ان يعزل الوزير والحادي عشر ضباط الابراج والثاني عشر سليم ابو سيف احد مماليك الجزار وكان بالعنفوان والجبر والكبرياء لا نظير له يفعل كما يشاء دون معارضة . والثالث عشر زكور اغا المحتسب وناظر الاملاك فهذا كان عكا بتمامها ! والرابع عشر ايوب سلامه الكمركجي وهذا كان لا مثيل له بالسفاهة والتعدي والرداوة والخامس عشر كان عبد الحليم شيخ الخزينة واولاده وهو ناظر مصالح الفلاحين وكان لا يشبه احداً بساير تصرفاته . والسادس عشر مسعود الماضي وكان ذا نفوذ وكرامة لدى علي باشا الكتخدا وقد اشتهر بمكره ونفاقه . والسابع عشر القاضي الشيخ محمد ابو الهدى وكانت احواله غريبة ولا يجسر احد ان يتكلم شيئاً عنه فهو القاضي

(٥٦) عن رواية الياس صدقه كما نقلها جرجي يني في كتابه تاريخ سورية ص ٤١٢-٤١٦

واستاذ علي باشا وابنه عبدالله باشا[٥٧].

ومما رواه هذا الشاهد عن الموظفين لخارج عكة ان متسلم بيروت وامين جمركها اوزون علي اغا كان يطمع بالوزارة وينفق انفاق الوزراء ثم يطلب المال اللازم لذلك من سكان البلد وان ابراهيم اغا الكردي الذي كان يقيم في مرجعيون بعساكره كان يفعل ما يشاء ويعتبر منطقة نفوذه الاداري ملكاً له ولاولاده وسائر الاكراد. ومما يقوله ان مصطفى اغا بربر كان شرساً للغاية وانه تناسى الوالي والسلطان. وهو يقول عن الباقين انهم تساووا في الشراسة والعتوّ وفي عدم التفريق بين الظلم والعدل[٥٨].

(٥٧) تاريخ سليمان باشا لابراهيم عوره ص ٤٧٦-٤٧٩

(٥٨) المؤلف نفسه ص ٤٧٩-٤٨٠

الفصل الثالث

التدخل اللبناني

١٨٠٤-١٨٣٢

وهكذا فان الولايات الشامية في اوائل القرن التاسع عشر كانت رابضةً تحت مظالم ولاتها ومطامع قضاتها ومفاسد جنودها .

الخطر السعودي

وكانت الجزيرة العربية قد تمخضت مرة اخرى فأتت بمحمد ابن عبد الوهاب وسعود ابن عبد العزيز . ووُلد محمد هذا على شيء من الشذوذ فانه اظهر القرآن حفظاً بلا كتاب قبل العشرة وبلغ الحلم قبل الاثنتي عشرة . وقرأ على والده ولكنه لم يكتف فرحل طالباً وزار الحجاز والاحساء والبصرة واقام فيها ودرس على اشياخها . وكان لطيفاً محسناً شذوقاً حليماً ولكنه لم يكن يهاود او يلين في يقينه . فانه مذ رأى وجوب الرجوع الى الشرع والقرآن قبل كل شيء نبذ الشفاعة وحرّمها ثم ازالها . ورأى في الآية « قُل للهِ الشفاعةُ جميعاً له ملكُ السمواتِ والارض ثم اليه تُرجعون » رأى في هذا ما كفاه فحرّم زيارة الاولياء للتشفع ومنها قبر صاحب الرسالة . ومن هنا نشأ الخلاف بينه وبين اهل السنة الذين يرون في صاحب الرسالة الشفيع الاكبر . وفيما سوى هذا فان المصلح النجدي هو سني حنبلي . قال في احدى رسائله: « الحق والصواب ما جاءت به السنة والكتاب وما قاله وعمل به الاصحاب وما اختاره الائمة الاربعة المقلدة في الاحكام المتبعة فقد انعقد على صحة ما قالوه بالاجماع . » وفي الثانية والاربعين من عمره — ١٧٤٥ — بايع محمداً ابن سعود امير الدرعية على ان يكون اماماً يتبعه المسلمون . وتعاهد الاثنان على كلمة التوحيد ونشرها بين العرب . فحاربا العلماء بالعلم والجهلة بالسيف .

وكانت نجد والاحساء والعارض وما جاورها مقطعة الاوصال ليس فيهـا الا السيف فاصلًا واصلًا .

وكان القتل على الاجمال الطريق الاسهل الى الاستيلاء والسيادة . فقام محمد ابن سعود يدعو الى التوحيد على طريقته وبطريقة زملائه فدوّخ من دوّخ من جيرانه . ثم قـام ابنه عبد العزيز فحمل رايات التوحيد الى اماكن بعيدة في ذلك العصر في البوادي والحضر . ولم يقلق الدولة شيء من هذا حتى دخل سعود ابن عبدالعزيز كربلاء نقطة الدائرة في شفاعة الاولياء وذلك في السنة ١٨٠٠ وهدم القبة فوق قبر الحسين ونهب البلد . وفي السنة ١٨٠٣ دخل ايضاً مكة ظافرًا وشرع في هدم القباب فوق قبورها . ثم اتجه نحو المدينة فدخلهـا عنوة في السنة ١٨٠٥ ووجه كتابًا الى السلطان سليم الثالث يقول فيه ما معناه : امـا بعد فقد دخلت مكة وأمنت اهلها وهدمت ما هنالك من اشباه الوثنية وألغيت الضرائب الا ما كان منها حقاً وثبت القاضي الذي وليته انت فعليك ان تمنع والي دمشق ووالي مصر من المجيء بالمحمل والطبول والزمور الى هذا البلد المقدس . فان ذلك ليس من الدين[٥٩] .

واهتمت الدولة للامر وطلبت الى والي بغداد والبصرة ان يجردا حملة عـلى هؤلاء « الموحدين » ففعلا ولكنهما لم يفلحـا . وألحت كذلك على الجزار والي صيدا وطرابلس ودمشق وامير الحج بالامر نفسه . ولكنه كان قد بلغ اقدى الكبر وعجز وضعف . ثم عينت محمد باشا ابا مرق قائدًا لحملة على الحجاز فدخل دمشق وانتقل منها الى يافه واقام فيها فخالف اوامر الدولة ولم يكترث لهـا . وفي السنة ١٨٠٥ ارسلت الدولة الى دمشق خمسة وزراء لتعيين العساكر ومواكبة الحجاج وحمايتهم . ولكن احدهم كان قد ادمن على شرب الخمر فلم تفارقه لحظة من الزمن . وكان يجلس لمعاقرتها ويضع سلاحه امامه فاذا غضب على امرىء قتله بيده . فاطلق الشوام عليه لقب « سكران باشا » . وسار الحجاج وسار الباشوات معهم وانتهوا الى قرب المدينة ثم عادوا من حيث اتوا بعد ان مـات منهم عدد عظيم وبين هؤلاء سكران باشا[٦٠]

وكانت قد اتجهت انظار الموحدين الى الشمال فوصلوا في غزواتهم الى الجوف والبتراء واجتازوهما الى الكرك وحوران . ووصل منهم في السنة ١٨٠٦ الى اطراف حوران ثلاث مئة « رديف » فخرج اليهم الكنج يوسف بعسكر من دمشق وحاصرهم في قرية من قرى

(٥٩) تاريخ نجد لامين الريحاني ص ٢٥–٥٨

(٦٠) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص ٤٣٥–٤٣٦

حوران وبعد ان فرغ بارودهم تسلمهم الكنج وذبح منهم نصفهم وعاد الى دمشق بخمسين هجاناً[٦١] . وفي شهر محرم من السنة ١٢٢٢ (اذار سنة ١٨٠٧) عاد امير الحج عبدالله باشا والي دمشق والحجاج معه دون ان يؤدوا فريضة الحج . « وكان ذلك من العجايب لانه لم يكون جرى قط ان الحاج يرجع من دون الوصول »[٦٢] . فاغتاظ الباب العالي لذلك وعزل عبدالله باشا وولّى الكنج يوسف محله .

وكان هذا شامي الاصل نشأ في حماه وترعرع فيها ودخل في خدمة الملا اسماعيل كبير الدالاتية فيها فترقى عنده حتى أصبح دالي باش[٦٣] ثم خدم عبدالله باشا المظم المشار اليه آنفاً واحمد باشا الجزار وابراهيم باشا قطراغاسي . وعاد الى خدمة عبدالله باشا بعد توليه ايالة دمشق فعينه متسلماً عليها في اثناء قيامه بمهمة الحج[٦٤] .

وكان الباب العالي قد أفهم الوالي الجديد اي الكنج يوسف ان اقدس واجباته تأمين الحج وكبح جماح الوهابيين فهبَّ مذ تسلم ازمة الحكم في الايالة يعدُّ النفوس للجهاد ويطبّق الشرع الشريف فنهى عن المنكر ومنع المسكر وأغلق الملاهي وأبعد النساء الخاطيات وحرّم الموسيقى وصان ألسنة العباد من المسافهة والمشاتمة . نهى الوزير الجديد عن هذا كله وأنزل اشد العقوبات بمن خالف اوامره . ثم منع التدخين خارج البيوت وحرّم اكل الحلويات وأكره الذكور من شبان وكهول وشيوخ على الالتحاء . ونفّذ بعض النصوص الشرعية القديمة بحق النصارى واليهود وألحّ على بعضهم بوجوب التدين بالاسلام . ثم التفت الى الادارة فقبض على البعض من وجوه الانكشارية وأذاقهم عذاباً أليماً وعاسر الدنادشة في تل كلخ وضواحيها ولم يسامحهم حتى دفعوا مئة كيس من النقود ثم كتب الى مصطفى اغا بربر بوجوب التخلي عن القلعة كما اشرنا وتسلم الاحكام في طرابلس خارجها فأبى وعندئذ قام الوزير بعساكره الى حماه لتأديب النصيرية ولانزال العقاب بصاحب طرابلس . ولدى وصوله الى منطقة النصيريين فرّ النصيريون من القرى والضيع والتجأوا الى القلع الى حصن مصياف والقدموس وغيرهما . فتقدمت اليهم العساكر ونهبت اموالهم وحرقت زرعهم

---

(٦١) المؤلف نفسه ج ٢ ص ٥٠١

(٦٢) المؤلف نفسه ج ٢ ص ٥١٢

(٦٣) من التركية « دلي » ومعناه مجنون . والدلي باشي كان قائد الفرسان غير النظاميين .

(٦٤) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص ٥٢٠–٥٢١

وسبت نساءهم واولادهم وما فتئت حتى انقادوا للطاعة . وقام الوزير بعد ذلك الى طرابلس فدخلها وحاصر قلعتها حصارًا طويلاً[٦٥] .

احتلال دمشق

ولو ان والي دمشق توقف عند هذا الحد ولم يتحد لبنان لكان ذلك افضل له ولذويه . ولكنه تطلّع الى البقاع وضمر السوء للبنان ولعاهله الكبير فأقال من الحكم في بعلبك الامير جهجاه الحرفوش صديق الشهابي الكبير وفوّض الامور الى اخيه الامير سلطان الحرفوش ثم أمر برفع يد الدروز عن عدد من قرى البقاع مدعياً حرية التصرف بها . وطلب الى وكيله في طرابلس علي بك الاسعد ان يجمع من ايالة طرابلس سبعة آلاف غرارة من الحنطة وان يطلب بعضها من الشهابي الكبير بصفته امير بلاد جبيل والبترون . فضاق صدر الامير الكبير وأجاب الاسعد في طرابلس انه « لايمكنه ان يجري على بلاده عوايد مستجدة » . فغضب الوالي وأمر وكيله ألا « يصرّف » الامير كالعادة في حكم بلاد جبيل وألا يوجه له الخلع . وعندئذ بات الامير ينتظر الفرص لضرب خصمه ضربة قاضية . واتصل بسليمان باشا والي صيدا واطلعه على واقع الحال فشدد عزمه ونصح اليه بالاستعداد للحرب .

وبعد مضي فترة من الزمن لم تتجاوز الشهرين في الارجح ظهرت طلائع الوهابيين في افق حوران . فاضطر الكنج ان يستعد لمكافحتهم وطلب الى زميله والي صيدا ان يوافيه بالرجال فأوعز هذا الى الامير اللبناني ان يجمع ما امكنه من الرجال وان يلاقيه الى طبرية . وكان ذلك في تموز من السنة ١٨١٠ . فادرك الامير ان الفرصة سنحت وجيش خمسة عشر الف مقاتل وقام بهم من لبنان الى طبرية بطريق مرجعيون . وما ان أطل على عسكر الباشا حتى هبّت العساكر لاستقباله بالموسيقى واطلاق النار وساروا امامه حتى وصلوا به الى خيمة الباشا « فالتقاه هذا بالاكرام وحياه بالسلام وقبله بين عينيه واثنى عليه » .

وكان الكنج قد قام بعساكره الى حوران لنجدة محمدين آغا متسلم اربد وعجلون الذي كان قد حُصر في قلعة المزيريب . وعندما وصل الباشا بعساكره الوافرة واطلق مدافعه ارهاباً خاف الوهابيون لقلة عددهم وتراجعوا الى حدود البادية . وما ان علم سليمان باشا والامير الشهابي بواقع الحال حتى قررا القيام الى دمشق بعساكرهما واحتلالها وخلع الكنج يوسف من منصبه بالقوة . ويقال ان الباب العالي كان قد ضجر من تسويفات الكنج يوسف

---

(٦٥) المؤلف نفسه ج ٢ ص ٥٢٠-٥٢٩

ووعوده الفارغة فيما يتعلق بالوهابيين فأصدر فرماناً عيّن بموجبه سليمان باشا والي صيدا والياً على دمشق وطرابلس ايضاً وان سليمان هذا اطلع الامير اللبناني على هذا الفرمان في طبرية طالباً معونته . ومهما يكن من امر هذا الفرمان فان الباشا والامير قاما بعساكرهما الى دمشق بطريق القنيطرة — داريا . وكان قد بلغ خبرهما الكنج يوسف فهرول عائداً الى دمشق . ولدى وصول الباشا والامير الى قطنا علما بعودة الكنج الى دمشق فارسلا اعلاماً الى اعيان دمشق يخبرانهم بالفرمان السلطاني الذي قضى بعزل الكنج يوسف باشا . فخرج من دمشق عدد من اعيانها وقضاتها ليطلعوا على الاوامر السلطانيةوينقلوا معناها الى واليهم. ولدى وصولهم الى قطنا اطلعهم الامير على هذه الاوامر واشار عليهم بالطاعة والتسليم مؤكداً انه سينفذها بحرفها ولو ادى الامر الى تخريب دمشق . فلما سمعوا ذلك وشاهدوا قدوم الرجال من لبنان يومياً وبشكل متواصل طلبوا مهلة ثلاثة ايام . وعادوا الى دمشق . ولدى انتهاء المهلة دون وصول اي خبر من دمشق قام الباشا والامير بعساكرهما الى الجديدة وداريا فاشتبكا مع طلائع الجيش الدمشقي ثلاث ساعات ثم خرج يوسف باشا نفسه بما لديه من عساكر لصدهما ففشل في ذلك فشلاً كبيراً وولّى مدبراً وعاد الى دمشق وجمع ماله واثقاله وعزم ان يعيد الكرة في الليل فان ظفر بلغ المرام واذا خسر «سار في البر والآكام» . فبلغ ذلك مسامع الامير اللبناني وبات متربصاً مترقباً . وعندما علم عساكر الكنج بما عزم عليه مولاهم وكان لهم عنده مالٌ متأخرٌ نهبوا امواله واحماله ففر هارباً بنفر قليل متجهاً نحو اللاذقية فمصر . ودخل سليمان باشا والامير اللبناني دمشق منتصرين . ودبر الامير الامور فأعاد مصطفى بربر الى منصبه في طرابلس والملا اسماعيل الى حكمه في حماه والامير جهجاه الحرفوش الى امارته في بعلبك وعاد هو الى مقره في بتدين معززاً منتصراً[٦٦] فانشد شاعر قصره رائية طويلة هذا بعضها :

عرا الكون خطب هوله لا يقدّرُ	اثارته اوغاد من البدو فجّرُ
فسارع والي امرها الكنج يوسف	الى صدهم لما اتاه المخبرُ
ونادى باقطار البلاد الوحى الوحى	الى مشهد فيه الفتى ليس يخسرُ
فلبّى الندا بحر الندا قاهر العدا	شهاب الهدى ذاك السعيد المظفر

---

(٦٦) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٥٤٩-٥٦٤
المحفوظات الملكية المصرية لاسد رستم ج ١ ص ١-٨

بشير الملا بالنصر والعز والعلا امير بـه اعتز الولى والتآمرُ
امير له في كل نقع وغـارة فعالٌ واهوال الى الحشر تذكرُ
له في الوغى للفتك باعٌ مشرّعٌ وساقٌ الى خوض المنايا مشمّرُ
صبورٌ على الاهوال ان طال جورها حزوم سديد الرأي رهطٌ مدبرُ(٦٧)

النزوح الى لبنان

وتأثرت بعض الاوساط الاسلامية في الشام وما تاخم البادية فيما يظهر باليقظة الدينية التي اثارها محمد ابن عبد الوهاب فاضطر الكنج يوسف باشا ان يظهر بمظهر التدين والرجوع الى السنة فقام ينفذ بعض الاجتهادات الشرعية التي لا تمت الى السنة بصلة وتطرف في تفسير هذا البعض فأوصى اهل الذمة بوجوب النهوض للمسلمين اذا مرّوا امامهم او دخلوا عليهم . ومنعهم من التزيي بزي المسلمين وخصّهم بالالوان الاسود والازرق والخمري والاحمر وحرّم عليهم حمل السيوف والاسلحة وأمرهم بجز الناصية وشد الزنار وبوجوب اخفاء الصلبان والكتب المقدسة • ونهى عن قرع الناقوس بشدة وعن رفع الاصوات في الصلاة والجنازة وما الى ذلك من بقايا العصور الوسطى . ثم اكره بعضهم على تقبل الاسلام وحضّ كاتبه ومدبر اموره المعلم عبود البحري على ذلك ففر هذا هاربًا الى لبنان . وحذا حذوه عدد لا يستهان به من نصارى الايالتين دمشق وطرابلس(٦٨) .

وشكا دروز الجبل الاعلى امرهم الى الشهابي الكبير واستغاثوا بـه وبالشيخ بشير جنبلاط فكتب الى صديقيه سعيد آغا حاكم اريحا وطُبّل علي آغا حاكم جسر الشغور وأوفد بعثة قوامها فارس الشدياق وحسون ورد وبشير حسن ابي شقرا لدرس الموقف . ثم أمر بنقل الدروز من الجبل الاعلى الى لبنان فتم ذلك على نفقة البشيرين. ودخل الى لبنان سنة ١٨١١ اكثر من اربع مئة عائلة من هؤلاء. الدروز وزعت عـلى قرى الشوف وغيره من مقاطعات لبنان الوسطى والجنوبية ولا يزالون وقد لقب بعضهم بالحلبي(٦٩) . فانشد شاعر القصر قائلًا:

بشيرٌ خوّل الدنياء بشرًا به طاب الورى قلبًا وسما
من الاعلى ترّجت فيه قوم أراهم حادث الايام فمجا

---

(٦٧) ديوان المعلم نقولا الترك لفؤاد البستاني ص ٢٤٨–٢٤٩

(٦٨) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٢ ص ٥٢٤–٥٢٦
Corancez, *Hist. des Wahabis*, p. 126

(٦٩) المؤلف نفسه ج ٣ ص ٥٧٢
اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٤٨٦–٤٨٧

وقد حاطت بهم من كل فجٍ — عـداة جُمعت للغزو جمعا
فنادوا يا شهاب العصر أشرق — علينـا واقمع الاخصام قمعا
فلا الشهبـاء عادت مرتجانا — ولا الاعلى لنا سكناً ومرعى
وجرّد للاغاثة سيف عزمٍ — فريّ منه يخشى الصخر قطعا
وانزلهم امير العصر ارضاً — جموع الخايفين اليها تسعى
حمى لبنان دار الامن طودٌ — برقده العيون تصيب هجعا
فأمسوا آمنين على صفـاء — به روعوا خطوب الدهر روعا[٧٠]

البقاع ارض لبنانية

وخسر الكنج يوسف الدورة الاولى ولم يتمكن من فرض سلطته على البقاع كما ابنا سابقًا واضطرّ ان يفرّ من وجه الشهابي الكبير وان يلتجئ الى مصر. وادركه الطاعون فقضى فيها سنة ١٨١٤. وتولى بعده عدد من الولاة على دمشق ولم يشجعوا على اثارة قضية البقاع . وبعد ان تولى درويش باشا عليها نزعت نفسه الى موارد البقاع فعيّن حسن آغا العبد واليًا عليه وحضر هذا الى عميق في السنة ١٨٢٠ ليجبي اموالها فطرده اهلها. فقاتلهم ونهب مواشيهم وانطلق بها الى دمشق واخبر مولاه بما جرى فأمر هذا بالقبض على اللبنانيين الموجودين في دمشق . ولما بلغ الامير اللبناني ذلك أمر اهل البقاع ان يرحلوا الى الجبل وزحلة وعزم على ارسال عسكر الى البقاع ولكنه آثر التريث قليلًا لعل والي دمشق يعود الى رشده فيذعن للحق . وعندما اصرّ الوالي على موقفه من لبنان أرسل الشهابي الكبير ابنه خليلًا بعسكر الى البقاع لطرد الوالي الشامي . ففر هذا بجماعته الى دمشق وساق نجل الشهابي اكرادًا وغيرهم الى بتدين وسجنهم فيها[٧١].

وكان سليمان باشا والي صيدا قد توفي في السنة ١٨١٩ وخلفه في الولاية شاب نزق غرّار لم يتجاوز الثانية والعشرين من العمر هو عبدالله باشا ابن علي باشا الخزندار. فوقع بينه وبين زميله في دمشق خلاف حادّ حول الولاية . ذلك ان الوالي الشاب طمع بمنصب زميله بالاضافة الى منصبه . وادعى زميله في دمشق انه والي دمشق وطرابلس وصيدا وتأهب الاثنان للحرب والقتال[٧٢] . فشعر والي دمشق بحاجته الى لبنان وطلب الى احد خواصه ان يكتب الى الشهابي الكبير يوضح رغبة وزير دمشق في الاتفاق معه . فأطلق الامير اللبناني من كان

(٧٠) ديوان نقولا الترك لفؤاد البستاني ص ٢٧٥-٢٧٦
(٧١) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥١٩
(٧٢) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء لنعمان القساطلي ص ٨٥

قد سجنه من اتباع درويش باشا وقابله هذا بالمثل ثم ارسل رسلاً الى الامير يسأله ما يريد. فأجابه الامير اللبناني انه يريد :

اولًا : رفع الضبط عن القرى التي كان قد ضبطها يوسف كنج باشا مدعياً انها خاصة وزير دمشق مع انها ملك المشايخ الجنبلاطية من قديم الزمان .

ثانيًا : ان يكون والي البقاع خاضعاً لامر امير لبنان كما كان في سالف الايام .

ثالثًا : ان يرفع والي دمشق ما احدثه من الضرائب على البقاع

رابعاً : ان يكون صاحب وادي التيم وصاحب بعلبك تحت اختيار امير لبنان .

فلما عرض الرسول هذه الشروط على درويش باشا قبل بها وطلب الى الامير اللبناني ان يكاتبه بذلك رسمياً(٧٣) .

في دمشق ثانية

وأحب الامير اللبناني ان يُعلم عبدالله باشا والي صيدا بما تمَّ قبل الشروع في العمل فكتب اليه بذلك ولكن الباشا الشاب ابى ان يوافق الامير الكهل في رأيه وآثر اللجوء الى العنف . فأمر بطرد الامير منصور الشهابي من راشيا لانه تقبل حكم منطقته من درويش باشا . فقام الامير خليل نجل الشهابي الكبير بالف مقاتل الى راشيا ووافاه الى مرجعيون خمسماية وخمسون فارساً من فرسان عبدالله باشا . وارسل درويش باشا عددًا مماثلًا من الدالاتية وغيرهم وربح الدمشقيون الدورة الاولى . فهبَّ الامير اللبناني الكبير الى جهة القتال بنحو الفي رجل وكتب اليه عبدالله يستفزه ويؤكد عليه بوجوب ملاحقة الدمشقيين « واخراجهم عن حدود وادي التيم » . وكتب ايضاً الى قائد جنوده الهواره بوجوب دخول دمشق نفسها والقاء القبض على واليها . وارسل درويش باشا النجدة تلو النجدة ولكنه لم يتمكن من ارسال العدد الكافي من الرجال فان مجموع ما ارسله قارب الثلاثة آلاف مقابل ثلاثة آلاف لبناني وحوالي الالف وخمساية من جنود عبدالله باشا . ولم يكن هذا كل ما في الامر فان اللبنانيين كانوا يقاتلون في سبيل المصلحة العامة والعزة والشرف بينما عساكر الباشا الدمشقي كانوا كلهم من المرتزقة . ووقعت بعض الاشتباكات في نقاط معينة من الجبهة كان النصر فيها للبنانيين ونهب رجال الامير الشهابي الكبير مؤونة عساكر درويش باشا في وادي القرن . فأرسل سرعسكر دمشق الى الامير اللبناني يطلب منه الامان والصلح فأجابه الى ذلك . وصرف مناصب لبنان الى اماكنهم

(٧٣) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٢٠
المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ٢٦-٢٧

وابقى عنده اقاربه والشيخ بشير جنبلاط والشيخ علي العماد والشيخ حمود النكدي . ولما علم سكان ضواحي دمشق بما حلّ بعسكر واليهم خافوا من قدوم اللبنانيين اليهم واخلوا منازلهم وحمّلوا امتعتهم الى دمشق . فارتجت المدينة وعظم الخطب وحنق درويش باشا حنقاً شديداً[٧٤] .

ثم اشتدت الفتنة بين عبدالله باشا وبين درويش باشا فاتصل الاول باخصام الثاني في نابلس وكانت تابعة لحكم درويش باشا فألبهم عليه واشتد الخصام بين طوقان وجرار وغر[٧٥] . فارسل درويش باشا عسكرًا اليها بقيادة فيزو باشا . ولما بلغ عبدالله باشا وصول هذا العسكر الى المزيريب ارسل عسكره الى جسر المجامع يمنعونهم عن العبور الى نابلس . واستنجد بالشهابي الكبير فأوفد هذا ابنه خليلًا على رأس قوة الى الجسر المذكور . وكان عبدالله باشا قد ارجع حكم جبل عامل الى الشيخ فارس ابن الشيخ نصيف النصار فطلب اليه ان يوافيه الى جسر المجامع برجاله ففعل[٧٦] .

وبلغ درويش باشا هذا كله فانفذ الى الشهابي الكبير اثنين من خواصه مشيرًا عليه بعدم اسعاف عبدالله باشا « وانه مهما يطلبه ينله » . ثم كتب اليه ينبئه بتوجيه ايالة صيدا الى عهدته ووقّع هكذا : محمد درويش والي الشام وطرابلس وصيدا . فأصرف الامير رسول الوالي من غير جواب وارسل كتاب درويش باشا الى عبدالله باشا فأجابه هذا بان يجمع الرجال ويسير الى جسر المجامع ووقّع هكذا : عبدالله والي صيدا وطرابلس والشام . وعندئذٍ رأى الامير الكهل ان لا بد من الاتصال بالوالي الشاب وادلاء النصح اليه . فقام الى عكة ودخلها بموكب عظيم واطلقت له المدافع من الابراج وقوبل بمزيد الاعزاز والاكرام واختلى بالوالي الشاب ثلاث ساعات حاول في اثنائها اقناعه بوجوب الاعتدال اذ ان دمشق في نظر الدولة باب الكعبة وانه لا يجوز والحالة هذه اقتحامها فأبى . وعندئذ قام الامير اللبناني الى جسر المجامع وتولى قيادة العساكر بنفسه وزحف على دمشق مرة ثانية . ولدى وصوله الى قرية الجديدة عن طريق كوكب والمعظمية أخرج والي دمشق عساكره كافة

---

(٧٤) المؤلف نفسه ص ٥٢٠–٥٢٥ ، ولا يخفى على القارئ اللبيب ان شهادة الشيخ طنوس الشدياق في هذا الموضوع مقبولة لانه شاهد هذه الحوادث بام عينه ولانه شايع اخصام الشهابي الكبير من اقربائه الامراء .

(٧٥) تاريخ جبل نابلس لاحسان النمر ٢١٤–٢٢٢ . وفيه نص بعض الاوامر الصادرة عن درويش باشا الى اعيان نابلس بوجوب طرد موسى بك طوقان واخيه رضوان بك وابن اخيه اسعد بك .

(٧٦) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧١٠–٧١١

الى قرية المزة في ضواحي دمشق . وفي السادس والعشرين من شهر ايار ١٨٢١ نهض الامير بالعساكر الى المزة وهجم على عساكر درويش باشا فازاحهم منها وقتل منهم مئتين وعشرين رجلاً وأسر خمس مئة . وازدحمت فرسان الدالاتية على معابر المياه فانطرحوا صرعى وغرق منهم عدد كبير . وخاف درويش باشا من قيام الدماشقة عليه فأرسل حريمه وامتعته الثمينة الى القلعة وسار بمن بقي عنده اليها وتحصن فيها[٧٧] . وعفّ الامير عن الدخول الى دمشق وعاد الى مقر قيادته في قرية المعظمية . ولكنه رأى ان ضرورة الحرب تقضي بضرب فيزو باشا قبل وصوله الى دمشق فأرسل خليلاً بالف فارس وارسل معه بطلين من ابطال لبنان الشيخ علي جنبلاط والشيخ حمود النكدي . فالتقوا بالباشا في قرية مرجانة وقتلوا من رجاله خمسة وعشرين واسروا ماية وخمسة عشر وسلبوا ثلاثماية فرس .

الباب العالي

واعتبر البابُ العالي عمل عبدالله باشا تعدياً مفضوحاً واخلالاً بالامن وتضييقاً على الحجاج وعقاً بالسلطان واتهمه بالخداع والتزوير . قال محمد نجيب افندي ممثل العزيز في الآستانة في تقرير رفعه الى ولي امره في القاهرة : ان عبدالله باشا التجأ الى مختلف الحيل وَنَشر الاخبار الكاذبة وزوّر المراسيم مدعياً ان الدولة انعمت عليه بولاية الشام وامارة الحج وبسنجقي القدس ونابلس وانه استطاع بذلك من ادخال الغفلة على بسطاء العقول وطوائف العربان والدروز واضلّهم واما لهم الى جانبه . ولو علم هؤلاء حقيقة الحال لانفضوا من حوله واسرعوا الى طاعة الدولة العلية[٧٨] .

اعتبر الباب العالي هذه الاعتبارات كلها فعزل عبدالله باشا من مناصبه الثلاثة ولاية صيدا وولاية طرابلس وقيادة الجردة العامة « باشبوغ » واحالها كلها الى عهدة محمد درويش باشا والي دمشق وامير الحج وطلب الى مصطفى باشا بيلانلي والي حلب وحلمي ابراهيم باشا والي ادنه ان يتعاونا ووالي دمشق في انهاء مسألة عبدالله باشا في وقت قريب .

فقام مصطفى باشا بما توفر لديه من عساكر متجهاً نحو دمشق . ولدى وصوله الى حمص

---

(٧٧) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٣١–٥٣٣ . ولا يخفى ان الشيخ طنوس هذا رافق امراء المعارضة الى دمشق وهم الامير حسن والامير فارس والامير سلمان الشهابيون وبقي في خدمتهم طوال مدة الحرب وقد اشار الى ذلك في اسفل الصفحة ٥٣٠ .
راجع ايضاً لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧١٤–٧١٥

(٧٨) المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٣١–٣٢
لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧١٧

كتب الى اللبنانيين عموماً ان يكونوا في طاعة الاميرين الشهابيين حسن وسلمان . وبعد وصوله الى دمشق كتب الى الشهابي الكبير يخبره انه قدم بامر الدولة لمساعدة درويش باشا على عبدالله باشا لخروج هذا الاخير من خاطر السلطان. ثم امر الامير بطاعة الدولة وبصرف العساكر وبالرجوع الى محله وارفق مرسومه هذا بنسخة عن الفرمان السلطاني الذي تلقاه من الباب العالي(٧٩) . فأذعن الامير لامر السلطان ونهض بعساكره الى خان الشيخ وصرف رجاله ثم قام الى مجدل شمس فبعذران الشوف فبتدين . وكان مصطفى باشا يقدر الشهابي الكبير حق قدره ويعلم انه باستطاعته ان يحارب عساكر الوزراء الثلاثة اجمعين(٨٠) . فحاول استمالته وعرض عليه البقاء في الحكم لقاء اداء الطاعة بشخصه لدرويش باشا وابقاء احد اولاده او احفاده رهناً فلم يقبل الامير بذلك . ثم عرض عليه ارسال احد اولاده او احفاده رهناً دون مقابلة درويش باشا فأبى مرة ثانية . وتمّ الاتفاق بين مصطفى باشا وبين الشهابي الكبير على عزل الاميرين حسن وسلمان وتولية عباس لقاء الف الف غرش من الشيخ بشير جنبلاط وابقاء احد اولاد هذا الشيخ رهناً عند درويش باشا وذلك للحيلولة دون وصول الحزب اليزبكي الى الحكم في لبنان(٨١) .

ورأى عبدالله باشا ان يقيم الشهابي الكبير في بيروت لتفكيك الاهالي واضعاف المعارضة في لبنان وأصدر امره بذلك الى متسلم بيروت واعيانها(٨٢) . فقام الامير اللبناني باولاده والف نفر الى بيروت وتزل في حرج الصنوبر خارجها. فخرج اليه متسلمها خليل كاشف ومفتيها الشيخ عبد اللطيف فتح الله ونائب الشرع فيها الشيخ احمد الاغر ورحبوا به ترحيباً ثم اشاروا الى عصاوة عبدالله باشا ورجوا الامير الا يدخل البلد . فعاد عنها الى الدامور ومنها الى مصر كما ابنا سابقاً(٨٣) .

وحذت حذو بيروت جميع مدن الساحل . ففي طرابلس ونواحيها اعلن علي بك الاسعد

---

(٧٩) وقد حفظ الامير حيدر احمد المؤرخ صورة هذا الفرمان : ج ٣ ص ٧١٨-٧١٩
اطلب ايضاً اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٣٢

(٨٠) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٢٤ اسفل

(٨١) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٣٣

(٨٢) عبدالله باشا الى محمد علي باشا ١٨ ذي القعدة ١٢٣٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٣٤-٣٥

(٨٣) « حيث اهالي بيروت لا يرضون تملك اهالي الجبل على بلدهم » الامير حيدر احمد الشهابي . لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٢٥

خروجه على عبدالله باشا وجمع رجاله من عكار وقام بهم الى طرابلس فحاصرها واحتل مرفأها وبمجرد وصول فرسان الوزراء الى صيدا وصور سلّمت حاميتها « من غير ضرب ولا قتال ولا مصادمة ولا قواص بارودة واحده »[٨٤] . وقامت العناصر المناوئة لعبدالله باشا في نابلس والقدس وغزة وهاجمت يافه فحاصرتها واضطر عبدالله باشا ان يمد حاميته فيها بالمؤن والذخائر من عكة بحرًا . ومما قاله عبدالله باشا عن حصار يافة انه «لا يحتمل حال الحامية فيها الى مضايقة ايام طويلة لان جميع تلك النواحي تظاهرت بالعداوة والشر والدسايس من جانب الشام الى عساكرنا فيها لم هي منقطعة ابدًا »[٨٥] .

حصار عكة

وقام الوزراء الثلاثة مصطفى بيلانلى باشا وحلمي ابراهيم باشا ومحمد درويش باشا بعساكرهم من دمشق الى البقاع فصيدا ومنها الى عكة . ولدى وصولهم اليها في اواخر آب من السنة ١٨٢٢ اطلقوا سبع طلقات من مدافعهم فأجيبوا بطلقة واحدة من عكة وبدأ الحصار . وكانت حامية عكة مؤلفة من الف نفر فقط . وكان يحيط بشخص عبدالله باشا لحراسته مئتا رجل من رجال جبلة موطن والدته . وكان لدى الباشا فرقاطة تمخر البحر الى مسافة ثلاثين ميلًا فتأسر السفن المتجهة الى الشام وتأتي بها الى عكة[٨٦] . وكانت قوة الوزراء الثلاثة تفوق حامية عكة عددًا اربعة آلاف مقاتل ولكنها لم تحز فيما يظهر مدافع حصار فان والي دمشق كتب الى محصّل قبرص يطلب مدافع منه وذخيرة فامتنع هذا عن ارسالها مدعياً انها تفقد قبل وصولها اليه[٨٧] . فاضطر الوزراء والحالة هذه ان يقتصروا على المناوشات وبعض المفاجئات وعلى عامل مرور الزمن . ولكن هذا فيما يظهر لم يكن في صالحهم لما تتطلبه من مال وارزاق . وتأفف عبدالله باشا في نفسه من عجرفة بعض عساكره ووقاحتهم ومطاليبهم مما اضطره الى انفاق سبعة غروش الى كل منهم يومياً[٨٨] .

موقف العزيز

وكان عبدالله باشا مذ أحسّ بالسخن قد بعث كتخداه الى مصر يستغيث بواليها ويقطع عهودًا وعهودًا على نفسه . ولا تزال بعض رسائله محفوظة

(٨٤) عبدالله باشا الى محمد علي باشا ١٨ ذي القعدة سنة ١٢٣٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٣٦

(٨٥) الرسالة نفسها .

(٨٦) صالح بك الى محمد علي باشا ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٣٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٤١

(٨٧) صالح بك الى محمد علي باشا ٧ محرم سنة ١٢٣٨ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٤٢

(٨٨) صالح بك الى محمد علي باشا ١٥ ذي الحجة ١٢٣٧ : المحفوظات الملكية ج ١ ص ٤١

في قصر عابدين وقد كتبت باللغة العربية . واليك بعض ما جاء فيها : « غب ابلاغ الدعاء التام بالمبادي والختام والتوسل الى حضرة باري الانام بدوام بقاء وجودكم وقهر عدوكم وحسودكم وحفظكم على الدوام ملحوظين ومكلوئين بعين عنايته تعالى التي لا تغفل ولا تنام . وان تموج بحر الخاطر العاطر ولاح في مخيلة الفكر الزاهر السوال عن حال ولدكم هذا فانه بحمده تعالى وحسن انفاسكم الطاهرة حائزاً مرتبتي الصحة والعافية والمنحة الوافية سايلاً جوده جل جلاله وعم نواله دوام بقاء دولتكم وخلود مهابة صولتكم وبلوغكم في الدارين اقصى مرامكم وبغيتكم . » ثم يشير عبدالله باشا الى عريضة سابقة حملها الى مصر احد اتباعه والى عودة كتخداه من مصر يحيطه علماً « بما انعطفت به مكارمكم الملوكانية من الجابرة والتلطف لولدكم والوعد الكريم الذي فاضت به انجار حلمكم بالقاء انظار المساعدة والامداد والتفات العناية لنحونا » الى ان يقول . « واكدنا لدى عاطفتكم تمسكنا بحبال حكمكم وكرمكم واتخاذكم بعد الله ملجأ وطيد وعضداً اكيد في ساير امورنا وان مالنا تعلق ولا امل في مخلوق في العالم سوى في مراحمكم . ثم وضحنا لدولتكم كيفية احوالنا بالتفصيل ورجونا حلمكم العميم الاسعاف والامداد بما يثبت ويقوي امورنا . » ثم ينهي رسالته هذه بقوله : « وهذه كيفية الاحوال الواقعة اعرضناها بحروفها لدى سدة عنايتكم لكي يكون معلوم دولتكم حيث كرمتم بالتعريف لولدكم مع عبدكم كتخدانا بان في كل جمعة نرسل نعرض احوالنا لديكم مرتين . وعلى كل حال نحن ما لنا شيء وسعادتكم بالوجود فالبلاد بلادكم والقلعة قلعتكم والعيلة جميعها عيلتكم . »[٨٩] وحاول الباشا الشاب بعد ثمانية ايام ان يستدرج نابغة عصره الى الدخول في المعمعة فكتب له قائلاً : « وحيث ما بقي عند ولدكم عساكر خيل التي ندافع بها الاعداء في الخارج لكي تنكسر عين الموجودين عندنا بالقلعة وبحسب همم دولتكم العالية العلية فادتنا ما هي شيء ولا تعد من الامور الجسيمة التي تعظم على سعادتكم حيث من كرم الباري همكم وسطوتكم تزعزع الجبال وترهب الاقطار . فاذا كرمتم وحلمتم بارسال اقلما يكون خمساية خيال من جانب البحر فهم كفاية الى تفكيك الامور وثبات امورنا جميعها داخلاً وخارجاً كون كما اعرضنا شهرة عنايتكم وسطوة شاهانيتكم القوية ترتعد منها الاقطار . فبمجرد الاستماع بورود الخيل من جانب ملوكانيتكم يستولي القلق والاضطراب الى الجميع وتلين عريكة العساكر الموجودة عندنا داخل القلعة ويستروا ثابتين بخدامتنا ويتشدد عزمنا وبأسنا . »[٩٠]

(٨٩) المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٣٣-٣٤

(٩٠) عبدالله باشا الى محمد علي باشا ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢٣٧ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٣٧-٣٨

وكان العزيز قويّ الادراك عاقلاً حكيماً فامتنع عن التدخل الفعلي في الحرب في الشام وعن ارسال الخيل والفرسان الى عبدالله باشا ولكنه كتب الى الاستانة « وسعى له بالخير لدى محافلها »[٩١] فتقبل الباب العالي اقتراح العزيز وعرض عليه حلولاً ثلاثة ولكن العزيز لم يقبل بها واصرّ على ابقاء عبدالله باشا في منصبه. فوافق السلطان على ذلك وصدر امره بابقاء عبدالله باشا في منصبه في التاسع عشر من رمضان سنة ١٢٣٨[٩٢] . فاستدعى العزيز ضيفه اللبناني الشهابي الكبير واخبره بذلك وقال له : « انه لاجل حسن نيتك تسهلت هذه الامور وارتحنا من المتاعب وهذا التعب والمراجعات الى الدولة هو لاجل خاطرك فقط لا لاجل عبدالله باشا » . ثم وافق العزيز على قيام الامير اللبناني الى عكة لارشاد واليها وتدبير امورها . وامر سلحداره سليمان اغا ان يواكبه اليها قائلاً : « اعلم كأنك سائر معي »[٩٣]. وكتب العزيز الى عبدالله باشا يشير عليه بدفع الف كيس الى مصطفى باشا الذي تولى حصار عكة وأنفق ما أنفق وان يعجل في تقديم المبلغ المطلوب منه الى الآستانة « بصفة شكر وحسن خدمة » ثم اعلمه بان صرافه في الآستانة تعهد بدفع الباقي وقدره عشرة آلاف كيس[٩٤] .

وقام الامير الشهابي الكبير بحاشيته الى عكة في مراكب مصرية ثلاثة . ولدى وصوله اليها بعد ستة ايام اطلقت هذه المراكب ستين طلقة فاجابتها عكة باكثر منها واجابها مصطفى باشا بعشر طلقات . ونزل الامير وسلحدار العزيز الى عكة فاستقبلها واليها بمزيد الاعزاز والتكريم وتليا على من في عكة اوامر الدولة ثم قاما الى معسكر مصطفى باشا فاطلعاه على محتويات الفرامانات السلطانية وطلبا اليه ان يقوم عن عكة ففعل بعد ان قدم له عبدالله باشا مالاً لعساكره وجمالاً لعتاده . وحضّ الامير الباشا على تعجيل المبالغ المطلوبة للآستانة وأصلح ذات الحال بينه وبين اعيان جبل صفد وجبل عامل وقام الى بتدين فوصلها في ربيع السنة ١٨٢٣ وأنشد شاعره قائلاً :

نأى برهةً عنا وعاد بسطوةٍ وبأسٍ لأنف الضد قد جاء راغما

(٩١) محمد علي باشا الى كتخداه ١٦ صفر ١٢٣٨ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٤٥

(٩٢) محمد نجيب افندي الى محمد علي باشا ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٨ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٥٥

(٩٣) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٣٧-٧٣٨

(٩٤) محمد علي باشا الى عبدالله باشا ٢٩ شعبان ١٢٣٨ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٥٣ ولعل مجموع المال عشرون الف كيس : ج ١ ص ٥٩

تواری مواراة الهلال من العلا | واشرق بدرًا ساطعاً في الضيا كما
امير اللوا فخر الولاة وعزهم | شهاب جلا عنا الخطوب الدواهما[٩٥]

المورة

وكانت قد انتشرت الثورة في بلاد اليونان انتشارًا سريعاً وبادت في سبيل اخمادها ثلاثة جيوش عثمانية وثلاث عمارات . وفي السنة ١٨٢٤ هلك جيش كامل مؤلف من مئة الف مقاتل « فكبح السلطان جماح كبريائه الهمايونية » واستغاث بمحمد علي الكبير استغاثة كلية فلبي العزيز الدعوة وجيَّش الايات اربعة وارسلها الى المورة بقيادة ابنه ابراهيم. وكتب الى عبدالله باشا يخبره بانه كان قد وجه سؤالًا الى الامير بشير الشهابي قبل خروجه من مصر وعودته الى بر الشام يستوضح فيـه عدد الجنود الذين يتمكن الامير من جمعهم وارسالهم اذا اقتضى الامر لذلك . وان الامير اجابه بانه عند اقتضاء الحال يقدم عشرة آلاف رجل بقيادة ابنه الاكبر — يقول هذا ثم يطلب الى الباشا ان يتصل بالامير ويطلب اليـه ان يعدّ بوعوده بمناسبة ظهور قضية المورة[٩٦] . فكتب عبدالله باشا الى الامير اللبناني يستقدمه اليه للتداول في بعض الامور فنزل الامير الى عكة وبقي فيها خمسة ايام ثم عاد الى لبنان وبيده اوامر من والي الايالة تقضي بتجنيد عشرة الاف لبناني لخدمة العزيز كبقية عساكره وذلك « لاظهـار شان شهرة رجال الايالة »[٩٧] . وفي منتصف حزيران من السنة نفسها — ١٨٢٤ — وجّـه الشهابي الكبير ولده الامير أميناً الى مصر باربعين جوادًا نجدياً وبعدد ثمينة بلغ ثمن مجموعها مئة الف غرش . فلما بلغ العزيز قدومه أمر باستقبال رسمي فالتقته العساكر بالموسيقى ودخل القاهرة بموكب فخم . ثم استقدمه العزيز اليه وترحب به ولاطفه وسأله عن والده ثم سأله عن تجهيز العشرة الاف مقاتل فأجابه انهـا معدة . فقال له اكتب الى والدك ان لا لزوم لها وان قواتنا هناك قد لاقت نصرًا مبيناً[٩٨] .

وكان من ذيول ثورة المورة ان ظهر في مياه بيروت في شهر آذار من السنة ١٨٢٦ عدد من مراكب الروم . وما ان وصلت الى بيروت حتى ضربت البلدة بمدافعها وانزلت رجالها

---

(٩٥) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٣٩–٧٤٦

(٩٦) محمد علي باشا الى عبدالله باشا ٩ رجب سنة ١٢٣٩ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٥٩–٩٠

(٩٧) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٥١–٧٥٢

(٩٨) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٤٦ و ٥٥١ .راجع ايضاً لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٥٢–٧٥٦

الى البر وحاولت اقتحامها . فاستنجد المتسلم والمفتي واعيان البلدة الامير الشهابي الكبير واعلموا الوالي بما جرى . فأرسل الامير ولده خليلاً ببعض الخدم الى حرج بيروت وكتب الى مناصب البلاد ان يوافوه اليها ففعلوا . ولدى وصول الامير اليها استقبله اهلها بالعز والاكرام ومدحوا همته وحماسته . فلما رأت الروم كثرة الجموع وتوارد العساكر اقلعوا الى بلادهم . وعاد الامير الى مقره . ولدى وصول كتخدا الوالي عبدالله باشا قدم المسلمون من اهل بيروت الشكوى على النصارى بان حضور الروم كان بوسيلة منهم وانهم قبلوا بعضاً من الذين دخلوا المدينة . فأمر الكتخدا بالقبض على النصارى وتكتيب بضائعهم في حوانيتهم. وهاج المسلمون ففقد من البضائع نحو ربعها . فاضطر الشهابي الكبير ان يتدخل مرة اخرى وكتب الى الباشا يستعطفه ويلتمس منه اطلاق الاسرى وارجاع الاموال . فأجابه وكتب الى النصارى كتاب الامان وأمر الكتخدا باطلاقهم ففعل . ثم كتب الى الهاربين منهم الى الجبل ان يعودوا الى بيوتهم واعمالهم آمنين[٩٩] .

سانور

وزاد عطف العزيز على عبدالله باشا فازدادت مطاوعة الشهابي الكبير له وأنعم الباب العالي عليه بولاية طرابلس ثم بتصرفية لواء غزة ويافة والقدس ونابلس وجنين[١٠٠] . ثم بردت همة العزيز وقل عطفه على عبدالله باشا تدريجاً فازدادت عناية الباب العالي به واضطر الامير اللبناني ان يستمر في مطاوعته لعبدالله باشا . وادى الفتور في العلاقات بين العزيز وبين عبدالله باشا الى اشتداد والي دمشق في مواقفه من زميله في صيدا وطرابلس. وتوترت علاقات الواليين فيما يظهر في السنة ١٨٢٩ عندما أحيلت جبال القدس ونابلس الى عهدة عبدالله باشا . فكتب والي دمشق آنئذ محمود شركس باشا الى المتسلمين في هاتين المقاطعتين بعدم اطاعة عبد الله باشا . فغضب هذا وعزل متسلم نابلس الشيخ عبد الله الجرار وولّى مصطفى بك طوقان مكانه ثم اخرج القدس وجنين من آل جرّار وولّى عليهما مملوكين من مماليكه . وعندما علم والي دمشق بهذا طلب الى اعيان نابلس ان يلاقوه الى صفد ليضرب عبدالله باشا في عكة . فخرج معظمهم الى صفد ولكن محمود باشا خذلهم ولم يجسر على الحضور . فعاد الزعماء الى نابلس وقرروا الكتابة الى عبدالله باشا بالطاعة .

---

(٩٩) عبدالله باشا الى محمد علي باشا ١٩ شعبان ١٢٤١ : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٧٣
لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٧٧٩–٧٨٤
اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٥٩–٥٦٠

(١٠٠) محمد علي باشا الى سلحداره في عكة : المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٥٦–٥٧

ولكن الشيخ عبدالله الجرار لم يقبل بذلك نظرًا لما بينه وبين اسعد بك طوقان من المناظرة والخلاف . فكتبوا الى الباشا واجابهم بالقبول قائلًا : « لقد أمرنا ولدنا اسعد بك ان الذي يريد من مشايخ جبل نابلس الدخول بالطاعة والانقياد لطرفنا يعرض عنه لدينا وان شاء الله تعالى كل من طرق بابنا لا يشاهد الا جبر الخاطر . »[١٠١] وهكذا فان جميع هؤلاء الزعماء انقادوا للطاعة ما عدا الشيخ عبدالله الجرار والشيخ حسين عبد الهادي . فانتهز اسعد بك طوقان الفرصة وأوغر صدر الباشا على هذين الزعيمين . فارسل الباشا يستدعيهما اليه فذهب الشيخ حسين عبد الهادي الى عكة وقدم الطاعة وعاد الى صديقه الشيخ عبدالله الجرار يخبره بغضب الباشا . فامتنع هذا عن الذهاب الى عكة والتجأ الى حصن له في سانور كان قد شيده احد اجداده الشيخ محمد الداثر وصمد به في وجه عثمان باشا الكرجي والي دمشق سنة ١٧٦٤. ثم اضاف الشيخ يوسف الجرار الى هذا الحصن جناحاً خاصاً وزاده مناعة ونقش فوق بابه :

كن رزيناً اذا أتتك الرزايا وصبورًا اذا أتتك مصيبه
فالليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبه

وخرج على احمد باشا الجزار واعتصم بهذا الحصن نفسه فحاصره الجزار فيه ولم يقوَ عليه. وعندما طلب عبدالله باشا الى الشيخ عبدالله الجرار ان ينقاد الى الطاعة ويسلم الحصن اليه أبى واغلق الابواب في وجه رسل الباشا . فأمر الباشا عندئذ بحصار سانور ودكها دكًا وارسل المدافع والقنابر وبدأ الحصار ودام مدة دون جدوى . وتكاثر المقاتلون من جبل نابلس وحاصروا عسكر الباشا فاضطر هذا ان يستغيث باللبناني الكبير وكتب اليه بذلك[١٠٢] .

فجمع الامير اللبناني رجاله الى بتدين في اواخر السنة ١٨٢٩ وسلّم الاحكام وفصلها الى ابنه امين. ثم قام ومعه ولده خليل وحفيده محمود الى صيدا فعكة فوصلها في اول السنة ١٨٣٠ واستقبل استقبالًا رسمياً بالعساكر والموسيقى ونزل في قصر البهجة خارج عكة . ثم قام باربعة انفار من عبيده الى المدينة ودخل على الوزير فاستقبله استقبالًا حارًا. وفاوضه في أمر القلعة وحثه على اخذها وألح عليه في ذلك قائلًا : « ان لم آخذ هذه القلعة اقتل نفسي»

(١٠١) من عبدالله باشا الى احمد اغا النمر وكيل متسلم نابلس ٢٦ ربيع الاخر سنة ١٢٤٦ : تاريخ جبل نابلس لاحسان النمر ص ٢٤٠–٢٤١

(١٠٢) لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٨٠٠–٨٠٢

فاجابه الامير انه سوف لا يفتأ يهجم عليها حتى يدخلها . فدعا له الوزير بالتوفيق وكتب الى الامير امين ان يكون كوالده في تنفيذ الاحكام . وقام الشهابي الكبير بالفين من اللبنانيين الاشداء الى الناصرة فجنين فسانور . والتقاه كتخدا عبدالله باشا بالموسيقى والبارود وتجدد الحصار . ورأى الأمير اولاً ان يعمل لتأمين مؤخرته وعلم ان النابلسيين الخارجين عن الحصار قد تجمعوا ومعهم ثلاث مئة فارس من العرب واتوا الى قريتي عجه وفندقوميه وبدأوا يمنعون العسكر عن الماء فأحب ان يستعد لضربهم . ولكن حماس الرجال حال دون ذلك فقام الشيخ نصيف النكدي بمائتي رجل من دير القمر والمناصف ونهض الشيخ فارس والشيخ حسين التلحوقيان بنحو مئة رجل وهجموا جميعاً على القوم المجتمعين في صحراء عجه وكانوا قد اصبحوا جيشاً وافراً فانهزموا الى عجه فجدوا في اثرهم وحصروهم فيها فانهزموا منها فأحرقها اللبنانيون وأعملوا في اقفيتهم السلاح فتشتتوا وقبضوا على الباقين منهم في تلك القرية وجعلوا يذبحونهم كالغنم. فقتل منهم تسعة وستون رجلاً واعتقل اربعة عشر بعضهم من المشايخ بني الجرّار . فارسل الامير تلك الرؤوس والاسرى الى الباشا وقبل الشيخ نصيف النكدي وأمر له بفرس من الخيل الجياد . وفي اليوم التالي سار بعض الرجال الى القرى المجاورة للنهب . فاختشى الامير من وقوع الفتنة بين رجاله وبين عسكر الباشا . فوجه الامير بشير ملحم الشهابي والامير عبدالله حسن الشهابي ليرجعا اللبنانيين فأدركاهم عند قرية كفرراعي حيث كان النابلسيون فاذا نار الحرب قد اشتعلت بين اللبنانيين وبين النابلسيين. فانهزم النابلسيون من الاتراس الى داخل البلدة وتحصنوا فيها . فدخل اليها اللبنانيون وشرعوا يحرقونها . فانهزم النابلسيون منها وقتل منهم ستة عشر رجلاً . فالتهى اللبنانيون بالنهب وعندئذ ارتد النابلسيون عليهم وقتلوا منهم سبعة عشر رجلاً . فانفض كل الى مكانه .

وكان الامير الكبير قد اكمل استعداداته فنهض من الغد بجانب من الرجال يحرق القرى القريبة من المعسكر . فلما أبصره النابلسيون فروا من تلك القرى فأحرقت جميعها . فوقع الرعب في قلوب الناس وبدأوا يسلمون للامير فئة فئة . واستمال الوزير الموقف فاستدعى من كان عنده من مشايخ نابلس وأخذ يتهددهم قائلاً : « الا تعلمون ان اللبنانيين مشهورون بالشجاعة والبطش وان اميرهم هذا ما سار في مهمة الا وأيده الله فيها . اما سمعتم كيف شتت عساكر يوسف باشا الكنج في قرية عرطوز وكيف ظفر بعساكر درويش باشا في راشيا وكيف هزمهم في المزة .» فاعتذر المشايخ قائلين ان ما فعله اصحابنا في نابلس لم

يكن بطننا اصلًا . ثم تعهدوا له بمالٍ وافر فانعم عليهم بخلع وصرّفهم في بلادهم كما كانوا وسلمهم كتب امان لنيرهم . فوضعوا اولادهم رهناً عند الوزير وخرجوا من عكة داعين للسلم والمصالحة .

وكانت قد تهدمت اعالي القلعة من ضرب المدافع وانقطع الزاد عنها فخرج اصحابها بعيالهم وامتعتهم . وكان الامير خليل يحافظ عليهم في الطريق الى ان يصلوا الى اوطانهم . وكانت مدة الحصار ثلاثة اشهر . فأمر الوزير بهدم القلعة وآبارها وألبس مدافعه جوخاً احمر للتدليل بانها هي التي فتحتها . وكتب الى الامير والكتخدا ان يقوموا بالعسكر الى عكة ففعلا. وعاد الامير الى لبنان فالتقاه الامراء والوجوه الى صيدا، ثم حضر الى بتدين مؤيداً. (١٠٣)

(١٠٣) ليس لدينا من المراجع في تفاصيل الحصار سوى رواية واحدة هي رواية الامير حيدر احمد ج ٣ ص ٨٠٠–٨١٢ . وقد سبكها الشيخ طنوس الشدياق بعبارة صحيحة فاقتبسنا معظمها : اخبار الاعيان ص ٥٦٢–٥٦٦ .
أما قول الاستاذ احسان النمر في كتابه «تاريخ جبل نابلس» ص ٢٤٢ انه لم يكن في سانور احد سوى الشيخ عبدالله الجرار وبعض ذويه، وانه لم يكن عند اهل نابلس علم بالامر، فهو مغالطة تردّها تفاصيل الامير حيدر الوافية الكافية .

الفصل الرابع

العزيز والسلطان

الحرب الشامية الاولى

١٨٣١ - ١٨٣٣

محمد علي

وكان قد ضاق صدر المصريين عام ١٨٠٥ من اهمال الولاة وجشعهم وعربدة العساكر وطمعهم وفساد القضاة وانحطاطهم . فاجتمع زعماؤهم وعلماؤهم وجمهور من العامة في الثاني عشر من ايار في بيت القاضي ونادوا « يا رب يا متجلي اهلك العثانلي » . وفي اليوم التالي قاموا الى دار محمد علي وقالوا له : « اننا لا نريد هذا الباشا والياً علينا» فسأل «من تريدون» فاجابوا بصوت واحد « لا نرضى الا بك وتكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة وحب الخير » .

هذه شهادة لها اهميتها ولا سيما وانها صدرت عن شخص عُرف بابتعاده عن العزيز وعدم مطاوعته له اعني المؤرخ المعاصر الشيخ عبد الرحمن الجبرتي . والواقع ان محمد علي كان ذكياً عاقلاً بعيد النظر واسع الحيلة صديقاً صدوقاً باراً برفاقه محباً شفوقاً مسلماً مخلصاً في دينه يقوم باداء فرائضه بكل نشاط .

ووقَّع الزعماء والعلماء عريضة رفعوها الى الباب العالي وألحوا فيها بتعيين محمد علي والياً عليهم . وعاونهم في ذلك سفير فرنسة في الآستانة. فكان لهم ذلك . وتقلّد العزيز الحكم بارادتهم فعاونوه في السنوات الاولى في تثبيت دعائم حكمه وتذليل العقبات التي وضعها في

طريقه بعض رجال الآستانة والانكليز والمماليك[١٠٤] . وكان ما كان من امر القبودان باشا سنة ١٨٠٥ وموسى باشا سنة ١٨٠٦ والحملة الانكليزية على مصر سنة ١٨٠٧ وذبح المماليك سنة ١٨١١ ومؤامرة لطيف باشا سنة ١٨١٣

وتبصّر الباشا في امره منذ اوائل عهده فسعى سعياً حثيثاً لايجاد المال الـذي لا يقوم حكم بدونه فلجأ بدافع العجلة الى وسائل سلفائه وطالب متولي الحسبة العام المعلم جرجس الجوهري بحساب السنوات الخمس الفائتة فحصّل بذلك منه مبلغاً كبيرا ثم فعل بباقي متولي الحسبة في الاقاليم ما فعله بجرجس فاجتمع لديه مـال وافر ثم عاد الى جرجس مرة ثانية فدفع وهرب والتجأ الى المماليك . واستولى يوماً على بضاعة قادمـة من السويس ولم يتركها الا بعد ان دفع اصحابها الف كيس . واتهم يوماً آخر بطريرك الروم بانه ساعـد جرجس الجوهري على الفرار فغرّمه بمئة وخمسين كيساً. ووضع يده على عقارات نساء المماليك ولم يردّها الا مقابل مبلغ من المال . ولكنه على الرغم من هذا بقي بحاجة الى المال فجمع العلماء والوجهاء واطلعهم على متـأخرات العساكر واقترح ان يُصرّح له بقبض ثلث ايراد الاملاك . فضجّ هؤلاء وقالوا قد يصير هذا عادة فقال الباشا نكتب فرماناً ونقول فيه لعن الله من يفعله مرة اخرى . فرضي الوجهاء وانفرجت الازمة الى مدة قصيرة . ثم عاد الى نفسه وشحذ ذهنه فعادت الى مخيلته اختباراته الاولى في التجارة . فاحتكر التبغ والتنباك وانقص كمية الذهب من العملة . ثم أمر بفحص جميع الصكوك العقارية وانكر صحة معظمها . وأمر كشاف الاقاليم بالاستيلاء على جميع هذه العقارات باسم الحكومة . ولم يبقِ منها على اصله الا ما كان عقارًا مبنيًا او بستاناً . والواقع ان العزيز لم يغتصب ملكية الاراضي اغتصاباً فالسلطان سليم الفاتح كان قد اعتبر نفسه مالكاً لاراضي مصر وترك لصاحب الارض حق الانتفاع بها . وما فعله هو كان قد سبقه الخلفاء اليه من قبل منذ الفتح العربي . ولم يحدث هؤلاء بدورهم شيئاً جديدًا اذ ان مصر لم تعرف نظاماً آخر لملكية الاراضي طوال العصور القديمة . وبالتالي فجلّ ما فعله العزيز من هذا القبيل لم يكن سوى محـاولة تطبيق القانون والانتفاع به . وتبع هذا الانقلاب بطبيعة الحال انقلاب آخر هو احتكار الحاصلات . ذلك ان الفلاح المصري لم يكن من اليسار بحيث يستطيع اداء الضرائب نقدًا فأداهـا عيناً وانشأت الحكومة المخازن لجمعها كما انه لم يستطع ان يبتاع لنفسه ادوات الزراعة والمواشي

(١٠٤) للتبسط في هذا راجع تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر لعبد الرحمن الرافعي ج ٣ ص ١٢-٣٩

والبذور فقدمتها الحكومة قرضاً واضافت ثمنها الى مجموع الضرائب وسرى مبدأ الاحتكار من الزراعة الى الصناعة . فبعد ان صار العزيز مالك الاراضي الوحيد والتاجر الوحيد لمنتوجها صار ايضاً الصانع الوحيد لصناعاتها وزاد ايراده زيادة كبيرة(١٠٥) . ووافق هذا كله عصر اضطراب وحروب في اوروبة فزاد الاقبال على الانتاج المصري وزادت ارباح العزيز .

وكان من جراء هذا الوفر ان أصبح لدى العزيز من المال ما يكفيه للقيام باصلاح عسكري طالما تاقت نفسه اليه منذ ان سمع بنابوليون ولمس تفوقه وكانت عساكر العزيز تزداد تمردًا وعربدة وعبثاً بالطمأنينة والامن على الرغم من تيقظه الشديد ورغبته الاكيدة في القيام بواجبه تجاه الاهالي . ففي السنة ١٨٠٧ بعد فوز العزيز على الانكليز تخلّى العساكر عن راياتهم وانسلّوا جماعات وزرافات الى المدن والقرى للنهب والفتك وعندما أقبل هو يُخمد هذه الروح ثاروا عليه واطلقوا نيرانهم على منزله . وزاده حادث لطيف باشا الذي اشرنا اليه سابقاً شوقاً الى الاصلاح لانه تيقن انه مهما ادى للسلطان وحاشيته من الخدمات فانه لن يؤيده الا رغبة في تنزيله عن سُدته . فصمم على ايجاد جند مدرب على الاساليب الغربية مُفعم بروح الطاعة والولاء يعتمده في درء الملمات والتغلب على المحن . فاصدر أمره بانشائه سنة ١٨١٦ ولكن هياج الجند الالبانيين وتمردهم جعلاه يؤجل التدبير الى وقت آخر . وعاد الى تنفيذ مشروعه بعد اربع سنوات فتعاقد مع الكولونيل سيف الشهير وفتح مدرسة لتدريب الضباط في محل بعيد عن القاهرة وجنودها القدماء في اسوان ثم شكل اورطه الست الاولى في مطلع العام ١٨٢٣ وانزلها الى القاهرة بعد ذلك بعام واحد وانشأ المدارس المختلفة والمشاغل والمصانع حتى اصبح جيشه اقوى جيوش السلطنة باسرها . وكان في الوقت نفسه يعد اسطولاً للدفاع البحري بشراء وحداته من اوروبة اولاً ثم بانشاء دار للصناعة في الاسكندرية .

اسباب الحرب :

١ — **طموح العزيز** وما ان استتبّ له الحكم على هذا الوجه حتى بدأ بصره يمتد ويرتفع. فتطلّع اولًا الى ايالة صيدا المجاورة والى سناجق غزة ويافا والقدس وذلك لسببين هامين اولهما عطف سليمان باشا والي هذه الايالة (١٨٠٤—١٨١٩) على المماليك

(١٠٥) المؤلف نفسه ص ٥٩٣—٥٩٦ . اطلب ايضاً تاريخ الجبرتي تحت اخبار السنين ١٢٢٧ (١٨١٢) و ١٢٢٩ (١٨١٥) و ١٢٣١ (١٨١٦) .

واتصاله بهم . والثاني انه كان يُعد العدة لحرب شاقة في الحجاز فشعر بما لهذه الايالة ولما كان يجاورها من اهمية ستراتيجية واقتصادية . ولذا فاننا نراه يبعث بالرسالة تلو الاخرى الى الآستانة يشكو فيها سليمان باشا فيقول انه على اتصال بالمماليك يمدهم بالمشورة ويحرضهم عليه ويطلب عزله ثم يرجو العفو عن الكنج يوسف باشا وارجاعه الى منصبه والياً على دمشق[١٠٦] . ويقول العزيز في رسالة اخرى ارسلها الى الباب العالي ان المماليك قرروا الفرار عند الحاجة الى ايالة صيدا وانه قد يضطر هو ان يجهز حملة لمحاربتهم في نواحي العريش وغزة فيقوم اذ ذاك سليمان باشا « بتحريك الوشايات ودس الدسائس »[١٠٧] ويلوح لنا ان العزيز اوعز في هذا الوقت نفسه الى ممثله في الاستانة او الى بعض اصدقائه فيها ان يسعوا لتوجيه ايالتي صيدا ودمشق وطرابلس ايضاً الى عهدته . ودليلنا على ذلك ان الباب العالي في اواخر السنة ١٨١٢ اشار الى رغبة العزيز في توحيد هذه الايالات اليه في ديباجة فرمان اصدره اليه وأوصاه فيه بسليمان باشا في اثناء وجوده في الحجاز . وينص الفرمان بان هذا الرجاء انما نشأ عن وقوع النفرة في قلب العزيز لعدم توجيه ايالات سليمان باشا اليه[١٠٨] . فيقوم العزيز لهذا ويقعد ويعد هذا الالماع نوعاً من التوبيخ . ولكنه لا ينكره فيما يظهر. والثابت الراهن دون اي جدل هو ان العزيز كان قد سبق له ان كتب الى وكيله في الآستانة محمد نجيب افندي يطلب اليه « ان يجسّ النبض فاذا وجد الجوّ موافقاً عرض على الباب العالي جعل مصر ولاية ممتازة شأن ولاية الجزائر الى ان تنتهي حرب الحجاز فتعود مصر الى حالها الاول وذلك لاسباب اهمها اضطراب الاحوال في اوروبة واحتمال تدخل الدولة في بعض الحروب . ومنها ان تجارة مصر مع الخارج ضرورية لها وان امتيازها يضمن لها حياداً وبالتالي كسباً تجارياً كبيرًا »[١٠٩] . ونراه في الوقت نفسه يطمئن حكومة الآستانة فيعترف انه قبل ان يحظى بولاية الوزارة وفي بداية وزارته صدرت عنه بعض حركات تتنافى بظاهرها مع الرضى العالي ولكنه يؤكد ان ليس له امل ما دام حيًّا سوى ابراز حسن الخدمة واظهار الصداقة والعبودية للدين والدولة[١١٠] . ثم يرجو الحضرة السلطانية في عريضة خاصة

(١٠٦) محمد علي باشا الى الباب العالي ٢٥ شعبان سنة ١٢٢٥ (١٨١٠) : المحفوظات الملكية المصرية جـ ١ ص ١

(١٠٧) المحفوظات ايضاً جـ ١ ص ٢

(١٠٨) محمد علي باشا الى الباب العالي ٥ شوال سنة ١٢٢٨ (١٨١٣) : المحفوظات ايضاً جـ ١ ص ١٠

(١٠٩) ٢٧ شوال سنة ١٢٢٥ (١٨١٠) : المحفوظات ايضاً جـ ١ ص ١٣

(١١٠) محمد علي باشا الى الصدر الاعظم غير مؤرخ : المحفوظات نفسها جـ ١ ص ١٣

الا تصغي الى وشايات حساده فيقول :« قد بلغني ان بعض عبيدكم ممن يحسدني على ما نلته من العناية والعطف يقول ان محمد علي باشا ليس بذاهب الى الحجاز وانما يجهز العساكر للوصول الى غرض خصوصي[١١١] . »

وجد العزيز الجو غير ملائم فأعرض عن الطلب وبات يترقب الفرص للعودة اليه واكتفى الى حين بتقوية الروابط بينه وبين الشوام فآوى كل من أوى اليه منهم واكرم مثواه . ومن هنا ذهاب الشهابي الكبير اليه ونزوله عليه كما اشرنا الى ذلك سابقاً ومن هنا ايضاً عطف العزيز على عبدالله باشا والي صيدا والاهتمام بامره . وما فعله لبشير وعبدالله فعل مثله لآخرين عديدين منهم السياسي والقاضي والتاجر . واشتد اهتمام العزيز في هذه الفترة ايضاً بجيشه واسطوله ومصانعه وتنوعت مطالبه فازدادت رغبته في الشام وعظم ميله اليها. وهكذا فاننا نراه يستخرج الفحم الحجري من لبنان في اواخر السنة ١٨٢٣[١١٢] ويستورد بذور النيلة من فلسطين بكميات كبيرة[١١٣] والخشب منها ايضاً لصنع السواقي[١١٤] في السنة ١٨٢٦ . ونراه ايضاً يكتب في السنة ١٨٢٨ الى والي حلب فيطمه بفاجعة نوارين وبوجوب اصلاح ما تبقى من السفن ويرجوه ان يسهل نقل الاخشاب اللازمة من الاسكندرونة الى مصر[١١٥]. ثم يكتب اليه بعد سنة شاكراً اهتمامه بامر اوانس الحكيم الذي اوفد الى ديار بكر لابتياع النحاس[١١٦] . ويكتب بعد هذا بقليل الى والي دمشق يوصيه باحمد بك احد رجاله « الذي اوفد خصيصاً الى بر الشام لابتياع الخيل[١١٧] » .

وشق اليونان عصا الطاعة في السنة ١٨٢١ وخرجوا على السلطان وايدتهم دول وشعوب فكسروا جيوش السلطان مراراً وطردوا عماله فالتجأ الى العزيز يطلب معونته البحرية والبرية وأصدر له فرماناً يدعوه الى ذلك ويخوله ولاية الموره . ولبى العزيز الطلب واخمد

---

(١١١) غير مؤرخ : المحفوظات ايضاً ج١ ص ٥ – ٦

(١١٢) محمد علي باشا الى عبدالله باشا ٥ صفر و٧ جمادى الاولى سنة ١٢٣٩ (١٨٢٣) : المحفوظات ايضاً ج١ ص٥٨ و٥٩

(١١٣) محمد علي باشا الى عبدالله باشا ٣ جمادى الاخرة سنة ١٢٤١ (١٨٢٦) : المحفوظات ايضاً ج١ ص٧٢

(١١٤) محمد علي باشا الى عبدالله باشا غرة شعبان ١٢٤١ : المحفوظات ايضاً ج١ ص٧٢

(١١٥) المحفوظات نفسها ج١ ص١٠١

(١١٦) محمد علي باشا الى محمد رؤوف باشا ٢٢ ربيع الاول سنة ١٢٤٤(١٨٢٨–١٨٢٩) : المحفوظات كذلك ج١ ص١٠٧

(١١٧) المحفوظات ايضاً ج١ ص ١٠٨–١٠٩

الثورة في جزيرة كريت وفي الموره نفسها وبعد ان أتم كل هذا وفي اواخر السنة ١٨٢٧ كتب العزيز الى ممثله في الآستانة محمد نجيب افندي ان يسعى لدى ثلاثة من كبار رجالها شيخ افندي وياور افندي ومهرى افندي لاحالة الشام الى عهدته مشيرًا الى مطامع الدول وحراجة الموقف ومؤكدًا ان المحافظة على مصر وما يليها تقضي بضم الشام اليها . وكتب الى شيخ افندي مباشرة موجباً اسناد ايالة الشام اليه وايالة الروملي الى ابنه ابراهيم « كي يجندا من يلزم ويقوما بالدفاع عن الملة »[١١٨] .

ثم اعلن الروس الحرب على الدولة . واقتحموا حدودها وتوغلوا في اراضيها فعاد السلطان الى العزيز يستعين به فكتب هو يؤكد ولاءه ويظهر استعداده لارسال جنوده الى الآستانة ولكنه رأى ان طريق البر اسلم من طريق البحر نظرًا لاتفاق الدول وكثرة بوارجهم في البحر[١١٩] فأجابه الصدر الاعظم انه لا يرى ما يوجب القلق من ارسال العساكر بحرًا لمحاربة الروس وانه اذا كان لا بد من ارسالهم برًا عن طريق يافه فانه يرى من الموافق ان يسيروا دفعات متوالية لا دفعة واحدة[١٢٠] .

وأعاد العزيز الكرة قبيل الحرب الشامية كما سنرى فطالب بالايالات الشامية للمرة الاخيرة . ولا يُفهم الحاحه هذا الا على ضوء رغبة صادقة في اصلاح الدولة او يأس حلّ به من امكانية الوصول الى تفاهم مع رجال هذه الدولة او الاثنين معاً او ان يكون العزيز طامعاً بما طمع به عظماء الرجال من قبل فرأى في احتلال الشام مقدمة حربية لعمل اوسع واكبر . والواقع انه كان مسلماً مخلصاً في دينه يقوم بأداء الفرائض بكل نشاط وانه كان يعترف بتأخر « الملة المحمدية » بتعبير ذلك العصر وبضعف الدولة العثمانية وبعجزها عن حماية هذه الملة وبوجوب الصمود لطمع اوروبة وجشعها ودفع شرها عن « الملة » . فهو يقول في كتاب ارسله الى ابنه ابراهيم عند تازم العلاقات بينه وبين الباب العالي وبمناسبة تدخل الدول الاوربية ما معناه : « لا تهدف الدول الى تعضيد الدولة العثمانية ولكنها ترمي الى اضعاف الطرفين كي يتسنى لها الاستيلاء على البلاد الاسلامية بسهولة . ولذا فان قبول تدخل هذه الدول خيانة للملة ولثام استقلالها . فبدلًا من ان نقبل هذه الخيانة فنذكر باللعنة الى يوم القيامة

(١١٨) ٢٣ و٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٤٣ (١٨٢٧) : المحفوظات كذلك ج١ ص١٠٠ – ١٠١

(١١٩) محمد علي باشا الى محمد نجيب افندي غرة جمادى الاخرة سنة ١٢٤٤ (١٨٢٨) : المحفوظات نفسها ج١ ص١٠٩

(١٢٠) احمد خلوصي باشا الى محمد علي باشا ٣ رجب سنة١٢٤٤(١٨٢٩) : المحفوظات ايضاً ج١ص١٠٩

اجدر بنا ان نموت في سبيل الدين فنشيد بذلك دنيانا وآخرتنا معاً . هذا اذا غلبونا واما اذا لم يغلبونا ولم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً فحينئذٍ نجد في الدنيا اللذة التي يبحث عنها الناس في الآخرة . فيدوي في الآفاق صدى بطولتنا وسمعتنا الطيبة ويذكرنا العالم بالخير الى يوم القيامة. هذا لا ريب فيه . والله كفيل بعباده»[١٢١] . ولا يمكن اعتبار هـذا ضرباً من ضروب الدعاية التي تكثر في ايام الحروب اذ انه صدر عن العزيز لابنه وبشكل سري وبقي مطوياً مئة عام ولم يظهر للنور االا في السنوات الاخيرة . ولكنه قد يكون من باب تعزيز النفس تجاه عمل ادى القيام به الى اشتباك المسلمين بعضهم ببعض والى سفك الكثير من الدماء . وقد يكون خالياً من هذا صافياً والله اعلم .

ومما لا شبهة فيه ان الدولة العثمانية كانت آنئذٍ في تاخر وانحطاط وان كبار الرجال فيها كانوا يحسدون العزيز على ما ناله من الجاه والمال وانه كان بينهم رجل ذكي فطن سبق العزيز الى مصر وتنازل عن حكمها مكرهاً ممسكاً عداوة للعزيز متربصاً لفرصتها . وتفصيل ذلك انه لدى خروج الفرنساويين من مصر نشبت منافسة بـين يوسف باشا الصدر الاعظم وبين حسين كوجك باشا امير البحر (قبودان باشا) . وكان هذا رفيق صبوة السلطان فتغلب على الصدر وجعل احد مماليكه محمد خسرو باشا والياً على مصر . وكان تحت امرة هـذا الوالي قائدان للجند احدهما العزيز نفسه والاخر يوسف بك . ورأى العزيز ان الوالي الجديد لا يصلح للحكم سيئ التدبير محباً لسفك الدماء . وكان قد أسرع هذا الوالي الى اغتنام عداوة نشبت بين عثمان بك البرديسي وبـين محمد بك الالفي زعيمي المماليك وارسل جنوده لقتال البرديسي بفرقتين احداهما بامرة العزيز والاخرى بقيادة يوسف بك . فتقدمت القوتان نحو دمنهور حيث رابطت قوة من المماليك بقياده البرديسي نفسه . ولكن يوسف بك سبق العزيز واقتتل مع البرديسي وحده فانقض هـذا بفرسانه واخترق جيش يوسف بك وداس الرجال تحت حوافر الجياد وأعمل بهم السيوف فقتل منهم خلقاً كثيراً . فنسب يوسف اندحاره هذا الى امتناع العزيز عن المعاونة ووشى به الى الوالي محمد خسرو باشا . فثارت في قلب الباشا ثورة غضب وصمم على الايقاع بالعزيز فاستدعاه اليه بعد العشاء . ولكن حيلة الوالي لم تنطلِ على العزيز فاجابه انه سيذهب الى مقابلته في رائعة النهار وعلى راس جنوده[١٢٢] . وحرك العزيز جنوده على الباشا فطلبوا دفع الجماكية والمتاخرات . وكانت فتنـة ادت الى خلع لخسرو

(١٢١) المحفوظات ايضاً ج٤ ص٢٨٦

(١٢٢) هي حوادث مشهورة عالجها معظم المؤرخين واجاد في عرضها الياس الايوبي . اطلب كتابه محمد علي ص٢٢ — ٣٠

واخراجه من مصر . فعاد الى الآستانة متأثرًا وساعده الحظ فأصبح من رجال البطانة لا بل رجلها . فأوغر الصدور واقضّ على العزيز مضجعه واكرهه على مناصبة العداء والاستعداد للقتال في سبيل الدفاع عن النفس .

ويلوح لنا ان العزيز يئس من امكانية الوصول الى تفاهم ودي وانه رأى ان لا بد من اللجوء الى العنف ليضمن شيئاً من الاستقرار والطمأنينة ولاسيما وانه كان قد بذل ما في وسعه لارضاء السلطان وبطانته فدوّخ الوهابيين واخضع اليونانيين واظهر استعداده لمحاربة الروس . وكان ايضاً لا ينفك عن تقديم الهدايا . فانه في مطلع السنة ١٢٤٣ (١٨٢٧—١٨٢٨) وحدها قدم على سبيل الهدية الشخصية نصف مليون غرش الى السلطان نفسه وخمسين الف غرش الى السلحدار الشهرياري وخمسين الف غرش الى الصدر الاعظم وعشرين الفاً الى شيخ الاسلام وخمسة عشر الفاً الى القبودان باشا وخمسة عشر الفاً غيرها الى كتخدا الصدر الاعظم ومثلها الى الريس افندي (وزير الخارجية) وخمسة وسبعين الفاً الى جهات اخرى[١٢٣] . فعل كل هذا وعندما لبى الطلب لمحاربة الروس وصد طغيانهم اراد ان يرسل جيشه برًا الى الآستانة ولكنه مُنع بلطف وأُشير عليه ان يرسله بحرًا وقيل له اذا كان لا بد من ارساله برًا فعلى دفعات متوالية !!

يئس العزيز من امكانية الوصول الى تفاهم ودي مع رجال الآستانة ولجأ الى العنف في السنة ١٨٣١ ولكنه هل اراد الاستقلال والانفصال عن الدولة ام انـه اراد ان يفرض ارادته فرضاً فيبعد اخصامه عن السلطان ويحيطه باصدقائه ويستولي على الشام وغيرها فيصبح لديه من المال والرجال والنفوذ والعظمة ما يمكنه من تسيير سياسة السلطنة كما يشاء دون التعرض الى امور اخرى قد تثير جماعة المسلمين عليـه وتخلق ازمة دولية كبرى لا يمكن التكهن عن نتائجها ؟ نقول ليس لدينا من كلام العزيز نفسه ما يخولنا القول انـه طلب الانفصال عن الدولة او انه رغب فيه . وجل ما هنالك اقوال غيره عنه . واهم هذه ما جاء في رسالة ابنه اليه بعد وصوله الى كوتاهيه في اوائل السنة ١٨٣٣ وبمناسبة قيام وفد مفاوض الى الاسكندرية . فابراهيم يوجب عدم التردد ويرى ان المصلحة تقضي بالمطالبة باستقلال مصر وبضم قبرص واضالية وعلائية وايچ ايل الى مصر وكذلك تونس وطرابلس الغرب . امـا بغداد فانها بعيدة عن مصر قليلة الفائدة ولذا فانه يكتفي بالمفاوضة بشانها ولا يتمسك بضمها

(١٢٣) محمد علي باشا الى محمد نجيب افندي ١٥ محرم سنة ١٢٤٣ (١٨٢٧) : المحفوظات الملكية المصرية ج١ ص٩٥

الى مصر . ويرى القائد ابن العزيز ان الاستقلال هو خير وسيلة للتخلص من ظلم حكومة الآستانة وعدم وفائها ومطالباتها بالمال[١٢٤] . وكان قد سبق لابراهيم ان كتب الى والده قبل ذلك بشهر واحد يقول ان مصلحة مصر تقضي بمتابعة الزحف لخلع السلطان والتخلص من ظلمه ومكايده ولاجلاس ولي العهد مكانه وانه لا يخشى تدخل الدول الاوروبية اذ انها لا تستطيع منعه لان الوقت لا يسمح بذلك الى ان يقول « اما اذا شرعت هذه الدول في تقسيم السلطنة العثمانية فليس له الا ان يدعو بالسلامة وليحصل ما سيحصل في اقرب وقت حتى تنتهي هذه المشكلة ويزول الخوف »[١٢٥] . ومن هذه الاقوال ما فاه به الامير الشهابي الكبير حليف العزيز الى المعلم حنا البحري في اثناء حصار عكة : « انا كنت اتعشم وما ازال متعشماً في افندينا انه يحارب السلطان محمود لاجل فتح الاقطار الواسعة والاقاليم الشاسعة لا ان يتحصن في جبال الدروز ويحتمي بها »[١٢٦] . ومنها ايضاً ما قاله هذا الامير نفسه في الرد على اوامر قائمقام الصدارة التي قضت بوجوب التعاون مع عبدالله باشا : قال الامير لابنه الامير امين « اصرف التاتار وقل له عندما تسال الدولة عن رعاياها تسال الرعايا عن الدولة » الى ان قال « يا ولدنا شوفوا احوال هذه الدولة وضعفها الله يخلصنا منها »[١٢٧] . وهنالك طائفة من تصريحات رجال الآستانة موجهة الى الحكام والاعيان في بر الشام تتهم العزيز بالخيانة والخروج فتجعل تجزئة الدولة هدفه والاستقلال غايته . ولكن هذه التصريحات وهي ضرب من الدعاية التي تكثر في الحرب لا يمكن قبولها لما يعوزها من العدالة . فقد تصدق الحكومات فيما تنشر في مثل هذه الظروف ولكنها لا تنشر كل الحقيقة وهي خاضعة بطبيعة الحال لظروف قاهرة تكرهها على التلفيق والنطق بالباطل

وهكذا يكون العزيز وهو ذاك الرجل العاقل المتزن قد تطلب ما يمكن تحقيقه اعني السيطرة على الشام بالاضافة الى مصر والحجاز كي يتمتع بشيء من الاستقرار ويطمئن الى المستقبل . وهو ما ذهب اليه المسيو ميمو قنصل فرنسه العام آنئذٍ واقرب المقربين للعزيز بين

---

(١٢٤) تجد النص التركي في كتابنا « اسباب الحملة المصرية على سوريه » ص٥٧ ومعه ترجمته الى الانكليزية .

(١٢٥) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٩ شعبان سنة ١٢٤٨ (١٨٣٣) : المحفوظات المصرية ايضاً ج ٢ ص٢٢٥

(١٢٦) حنا بحري الى الباشمعاون ٢٧ رمضان سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ايضاً ج١ ص٢١٩

(١٢٧) القس انطون الحلبي الى البطريرك يوسف حبيش ٢ كانون الثاني سنة ١٨٣٢ : الاصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا — لنا ايضاً — ج١ ص٩٨

قناصل الدول اجمعين . فهو يقول مراراً وتكراراً في تقاريره السرية لسفير فرنسه في الآستانة ووزير خارجيتها في باريز ان العزيز ما فتئ يصرح خاصةً وعامةً انه لن يخرج على مليكه الشرعي وان مصلحتَه وضميرَه يمنعانه عن ذلك وانه لن يترك مجالًا للدولة ان تبعده عن مصر حتى ولو كان بامكانها ان تفعل ذلك[١٢٨] . ويرى هذا القنصل عينه ان لا أَساس لما ظهر في بعض الجرائد والمجلات والكراريس من ان العزيز يطمع في عرش السلطنة وسدة الخلافة[١٢٩] . ولكنه ربما يرغب في ضم بعض الاقطار العربية ليجعل منها نواةً تنفع في حال تأزم العلاقات الدولية وتجزئة الدولة العثمانية فتصبح دولة مستقلة له ولاولاده من بعده[١٣٠] .

والان وقد ثبت لدينا ان جلَّ ما طمح اليه العزيز عند السنة ١٨٣١ هو توجيه بعض الاقطار الشامية اليه يجدر بنا ان نحدد هذا البعض . فهل طلب العزيز احالة ايالة صيدا الى عهدته ام ايالة دمشق ام الاثنين معاً ام طرابلس وحلب ايضاً ؟ نقول ليس في المحفوظات الملكية المصرية ما يوضح بجلاء تام هذه الناحية من البحث فهنالك غموض في التعبير ان في الوارد الى القاهرة او في الصادر عنها . ويستدل من كلام القنصل الفرنساوي المسيو ميمو ان هذا الامر لم يكن محدداً معيناً في مخيلة العزيز نفسه فانه قصد اولًا الوصول الى عكة والاستيلاء عليها وعلّق امر دمشق وايالتها الى ان يكون قد انجز هذه المهمة الاولية ومثله فيما يتعلق بسائر الايالات[١٣١] . وكأني بالعزيز يقول في الرد على هذا السوال « نبدأ بالاستيلاء على عكة ولكل حادث حديث » .

(١٢٨) ميمو الى سباستياني في ٣٠ اذار سنة ١٨٣١ : الحرب الشامية الاولى لجورج دوان ج١ ص١٦

(١٢٩) ميمو الى سباستياني في ١٠ آب سنة ١٨٣١ : المؤلف نفسه ج١ ص٦٢ . اما موقف ابراهيم باشا من العرب والخلافة فانه له وحده فيما يظهر . اطلب تفاصيل ذلك في كتابنا اسباب الحملة المصرية على سوريه ص٨٣ — ٩٦

(١٣٠) ميمو الى سباستياني ٨ اذار سنة ١٨٣١ : المؤلف نفسه ج١ ص٩ راجع ايضاً كتابنا اسباب الحملة المصرية ص٢٤—٢٥ وفيه من كلام ترجمان عبدالله باشا ما يؤيد هذا الرأي .

(١٣١) ميمو الى سباستياني ١٩ ايار سنة ١٨٣١ : المؤلف نفسه ج١ ص٣٣— ٣٤ راجع ايضاً المحفوظات الملكية المصرية ج٢ ص٧٤ رقم١٥٧٦ وكذلك لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج٣ ص٨٣٧ : «فارند عليه جواب ان الدولة انعمت على ابراهيم باشا في ايالة صيدا وان طرابلس تابعة صيدا من وقت عبدالله باشا » .

٢ ــ موقف الباب العالي أخلص العزيز الطاعة للسلطان ربع قرن من الزمن ومحضه الود والنصح . ولم يكن السلطان قليل الوفاء جاحداً او غبياً ابلَه لا تميز له او متطرفاً في الحمية على التقاليد لا يذعن للحق ولا يريد الاصلاح. ولكنه قبض على زمام الحكم في عصر تأخر وانحطاط كثرت فيه الثورات الداخلية ان في البلقان واليونان او في الاناضول والعراق والجزيرة العربية ومصر[١٣٢] واشتدت فيه روح الاستئثار بالسلطة والانفصال عن السلطنة فتأصلت في نفس السلطان روح الخوف والجزع ولم يعد بامكانه الصبر على ما نزل به فحزن واضطرب . وقلَّ في ذلك العصر الاخلاص للدولة والملة وغلب فيه الحسدُ على الرجال والطمع . ففسُدت البطانة وبفسادها فسُدت الاحكام . وكان كلما ازداد العزيز قوةً وعزًا ازداد حسد حساده في الآستانة وكثرت وشاياتهم . وفي مقدمة هؤلاء محمد خسرو باشا المشار اليه آنفاً .

وارتاب السلطان في امر العزيز منــذ اول عهده في الولاية كما سبق فأوضحنا ولكن الظروف قضت بغض النظر عنه فبقي في منصبه حتى قوي وعظم شأنه . وكان من دواعي الارتياب في نوايا العزيز اتصاله ببعض الخارجين على السلطان من زعمــاء البلقان والاناضول والشام وقبول بعضهم في مصر مما ادى الى امتعاض السلطان والى توجيه التكدير الرسمي له بذلك . قال محمد رؤوف باشا في رسالة له الى محمد علي باشا في منتصف السنة ١٨١٦ : «لا بد من القــاء القبض على محمد بك ابن حسن باشا الالوانلي الذي التجأ الى مصر والتحق بجيش ابراهيم باشا — لا بد من القاء القبض عليه وارساله الى الآستانة او اعدامه في مصر خوفاً من ان يقال ان جميع المضغوط عليهم من قبل الدولة العلية يلتجئون الى طرفكم»[١٣٣] . وكان قد سبق للعزيز ان قبل كنج يوسف باشا في حماه وحاول استصدار العفو عنه واعادته الى منصبه السابق والياً على دمشق[١٣٤] .وفي ربيع السنة١٨٢٨ كتب الصدر الاعظم محمد سليم باشا الى العزيز يقول ان ما ورد من النقود الذهبية المصرية من فئة الخيرية يحمل العبارة «ضرب في مصر» وان مثل هذا العمل يُعدُّ تجاسرًا على الحضرة السلطانية ولذا فانه يرجوه ان يمتنع عن سك النقود الذهبية[١٣٥] . وبعد هذا ببضعة اشهر لم يتورع العزيز عن مخالفة السلطان في

(١٣٢) والاشارة هنــا الى ثورة علي باشاقيه ديلنلي وحرب العرب وثورة البوشناق ومصطفى باشا الاشقودري وداود باشا وغير ذلك . اطلب اخبارها في تواريخ الدولة العثمانية .

(١٣٣) المحفوظات الملكية المصرية ج١ ص١٦

(١٣٤) المحفوظات نفسها ج١ ص١ و٢ و٤

(١٣٥) المحفوظات ايضاً ج١ ص١٠٢

موقفه من الدول بعد واقعة نوارين الشهيرة . فبينما نرى السلطان يرفض مطالب الدول المتحالفة نرى العزيز يتفق مع هذه الدول على وقف القتال في المورة ويعقد اتفاقاً مباشراً معها على الجلاء[١٣٦] . فاشتدّ اضطراب السلطان وذويه ورأوا في هذه الاعمال وغيرها برهاناً ساطعاً على قلة اكتراث العزيز بهم وبخروجه عنهم . وعندما قضت الظروف بالتعبير عن هذه المخاوف قال احدهم احمد خلوصي باشا قائمقام الصدارة في رسالة له الى والي دمشق في صيف السنة ١٨٣١ :
« لا يخفى ان والي مصر يرمي الى غرضين ظاهري وهو الانتقام من عبدالله باشا وباطني وهو الوصول الى بر الشام مطمح انظاره والاستقلال بها كما استقل بمصر . واستعداده الحربي السريع تمّ بناء على اتفاق سابق احكمت عراه بينه وبين ذلك الثائر الخبيث الاشقودري بواسطة خال هذا الاخير جلال الدين الاخريلي الذي ارسل من قبل ابن اخته اثناء قيامه بالثورة الى مصر ليستنجد بواليها فقر قرارهما على ما يظهر على ان يقوما بحركة مزدوجة في آن واحد . وبما ان كل هذه التعليمات قد حصلت وقر الرأي عليها سراً بين اربعة من رجال الدولة المخلصين فيلزم عدم اطلاع الغير عليها »[١٣٧] .

٣ ــ قضية عبدالله باشا

وأدت اصلاحات العزيز الداخلية الى فرار الوف من الفلاحين المصريين الى غزة ويافه وتوابعها فطلب العزيز الى عبدالله باشا والي صيدا وصاحب عكة ان يأمر بعودتهم الى مصر وحرر له بذلك رسالة طيبة في منتصف اذار من السنة ١٨٣٠ اشاد فيها بما عاهد نفسه عليه من عمران الاقاليم المصرية وكيف انه تحقيقاً لهذا الامل قام باعماله الاصلاحيه اقليماً اقليماً ثم كيف ان اهالي اقليم الشرقية المتاخم لولاية عكة لم يفقهوا الحكمة من هذه الاعمال الخيرية ففرّ بعضهم الى ولاية عكة وانه لما ادركوا خطأهم وهموا بالعودة الى اوطانهم لم يُسمح لهم بذلك ثم يبين العزيز لعبدالله باشا انه يجب على شيوخ القرى في ايالته الا يعارضوا في رجوع هؤلاء الى مصر ويرجوه ان يبين ذلك للشيوخ كي لا يضطر هو بدوره ان يأمر بجلب الفارين وجلب الشيوخ معهم ايضاً . ويختم بقوله: « ان ولاءنا لذاتكم هو الذي اقتضى تسطير ما ذكر اعلاه »[١٣٨] . فأجابه عبدالله باشا بانه سيسعى لارجاع الفلاحين

---

(١٣٦) اطلب تفصيل هذا في تاريخ الحركة القومية ونظام الحكم في مصر لعبد الرحمن الرافعي ج ٣ ص ٢٢٥ – ٢٢٩

(١٣٧) المحفوظات الملكية المصرية ج١ ص١٢٣ – ١٢٤

(١٣٨) المحفوظات الملكية ايضاً ج١ ص١١٥

الى مصر ولكنه يرى ان الباب العالي لا يرضى عن تدخل والٍ بشؤون والٍ اخر[١٣٩]. فعظم ذلك على العزيز وشقّ عليه ولاسيما وانه كان قد فعل ما فعل من اجل هذا الزميل الشاب عندما غضب الباب العالي عليه وعزله من منصبه . ومما زاد في الطين بلة ان عبدالله باشا ضبط بضائع لتجار مصريين في ايالته مدعياً انها لغيرهم من ابناء نابلس[١٤٠] . فحنق العزيز عليه واغتاظ وشكا زميله الى السلطان طالباً وضع حد لهذه المسالة فاما ان يعين وزير آخر على عكة او ان يصار الى حل آخر لهذه المشكلة . فأسف الباب العالي كل الاسف ورأى ان يتريث العزيز في الامر فيُفسح المجال للباب العالي لتوبيخ والي صيدا وتأديبه . وعموت رسالة التأسف هذه من قناة العزيز فأشارت في الديباجة الى ان الجيوش التي حشدها العزيز للتعاون مع الباب العالي في تاديب مصطفى باشا الاشقودري لم تجمع الا للزحف على عكة[١٤١] .

ثم اوفد الباب العالي اثنين من وكلاء رؤساء الاقلام في الصدارة مصطفى نظيف افندي واحمد توفيق بك الى مصر للتدقيق في هذه القضية نفسها . فاستعرض العزيز امامها تطورات القضية فذكر خروج عبدالله باشا عن طاعة السلطان عام ١٨٢٢ وتدخله هو في الامر واستصداره العفو عنه واعادته الى سابق عهده في الحكم وكيف انه انتظر مقابل هذا صداقة ولياقة وائتلافاً ثم كيف ظن بعض ولاة الامور ان عبدالله رجل بامكانه ان يقف في وجه محمد علي فناصروه وشجعوه وبالتالي كيف اجترأ على اشياء تمس بشرف محمد علي وكيف التمس العزيز عندئذ عزله من منصبه . فرأى مصطفى نظيف افندي ان الحق بجانب العزيز واكد صدور نطق شاهاني باحالة ايالة الشام الى عهدة العزيز لتأمين الحج وطلب الى العزيز ان يعامل عبدالله باشا واعوانه بالحسنى والا فليعمل السيف برقابهم[١٤٢] . ويلوح لنا ان الباب العالي انما أوعز بهذه الوعود الشفهية ليكسب شيئاً من الوقت ضرورياً لبدء القتال ولاسيما وانه كان قد كتب بعكس هذا كله الى والي دمشق ووالي صيدا[١٤٣] .

---

(١٣٩) عبدالله باشا الى محمد علي باشا ١٤ شوال سنة ١٢٤٥ (١٨٣٠) عابدين بحر برا محفظة ١٣ رقم ٦٩

(١٤٠) محمد علي باشا الى برتو افندي كتخدا الصدر الاعظم ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٤٦ (١٨٣١): المحفوظات الملكية المصرية ج١ ص١٢١

(١٤١) احمد خلوصي باشا الى محمد علي باشا غير مؤرخ : المحفوظات ايضاً ج١ ص١٢٢

(١٤٢) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٢٧ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١ — ١٨٣٢) : المحفوظات نفسها ج١ ص١٦٠ — ١٦١

(١٤٣) المحفوظات ج١ ص١٢٣=١٢٤ وقد اشرنا اليها سابقاً . راجع ايضاً رسالة احمد خلوصي باشا الى عبدالله باشا ٣ رجب سنة ١٢٤٤ (١٨٢٩) : المحفوظات نفسها ج١ ص١٠٩

وتشير بعض المراجع غير الرسمية الى عوامل اخرى عاونت على تأزم العلاقات بين العزيز وبين عبدالله باشا منها ان عبدالله باشا استدان من العزيز مبلغاً كبيراً من المال عند حلول غضب السلطان عليه سنة ١٨٢٣ وان هذا الدين بلغ ٧٥٠٠٠٠ من الفرنكات الافرنسية وان العزيز طالبه به مراراً فلم يلقَ منه سوى المماطلة والتسويف[١٤٤] . ومنها ايضاً ان الباشا الشاب لم يصن لسانه عن القذف بحق العزيز مدعياً انه ثائر خارج عن طاعة السلطان[١٤٥] . ومنها ايضاً ان عكة اصبحت قبيل الحرب الشامية الاولى مركزاً للتآمر على سلامة العزيز وسلامة ابنه ابراهيم[١٤٦] . ومنها كذلك قول قنصل فرنسة العام في الاسكندرية المسيو ميمو ان العزيز طمع بصندوق عبدالله باشا وما حواه من المال وان المال المخزون في هذا الصندوق بلغ ثلاثين مليونا من الفرنكات الافرنسية وان الاستيلاء عليه كان من اهم اهداف الحملة على الشام[١٤٧] .

حيطة العزيز

واحتاط العزيز في أمره فشاور صديقه قنصل فرنسه العام في الاسكندرية قبل بدء القتال ببضعة اشهر وألح عليه بوجوب ارسال احد معاونيه في القنصلية الى باريز ليطلع الحكومة الفرنسية على ما ينوي العزيز ان يقوم به ويطلب موافقتها ومعونتها لدى المحافل البريطانية التي ما فتئت تنظر اليه بشيء من الريبة والتحفظ . وما ان أشار القنصل الى اعتدال العزيز وتسامحه في إدارة كريت حتى قال العزيز ألم ترَ كيف اكرمتُ رئيس اساقفتها فقدمته على فقهائها وخلعتُ عليه فروة ورفعتُ عنه وعن ذويه ما كان يثقل كاهلهم من الضرائب ؟ ثم أضاف وسينال نصارى الشام من الاستقلال والسعادة ما لم يروه من قبل وسيقرعون اجراسهم متى شاؤوا . اكدوا لحكومتكم ولمواطنيكم تحرري في هذه الامور[١٤٨] .

ولقد أصاب العزيز عندما طلب الى الحكومة الفرنسية ان تعاونه لدى المحافل البريطانية

---

(١٤٤) كادالفان وبارو : الحرب الشامية الاولى ص ٣٤

(١٤٥) راجع مثلا بيان عبدالله باشا الى ارباب الامر والنهي في القدس ٢٩ جمادى الاولى سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) في كتابنا الاصول العربية الخ ج١ ص ٦٤-٦٧

(١٤٦) كادالفان وبارو : المؤلف نفسه ص ٤١

(١٤٧) ميمو الى سباستياني ١٩ ايار سنة ١٨٣١ : الحرب الشامية الاولى لجورج دوان ج١ ص ٣١-٣٢ . اطلب ايضاً المحررات الايطالية السياسية لانجلو سماركو ج٨ ص ١٢٥ راجع ايضاً كتابنا اسباب الحملة المصرية ص ٢٨-٣٠

(١٤٨) ميمو الى سباستياني : المذكرة نفسها المشار اليها آنفاً .

ذلك ان ساسة الانكليز آنئذٍ وفي مقدمتهم الفيكونت بالمرستون كانوا يؤثرون التعاون مع فرنسه على التعاون مع اية دولة اخرى . ويرون في حكومتها الدستورية الجديدة وفي اسطولها خير معونة للصمود في وجه الحكومات المستبدة كحكومة روسية والنمسة وبروسية وتركية. وكانوا آنئذٍ منهمكين في مشاكل سياسية دولية غربية كمشكلة بلجيكة واسبانية اقرب بكثير اليهم من اي حدث شرقي ــ مشاكل تتطلب تعاوناً وثيقاً بينهم وبين فرنسه. ويستدل من المحفوظات البريطانية ان وزير الخارجية البريطانية الفيكونت بالمرستون كان لا يزال متردداً في اعماق نفسه متسائلاً ما اذا كان قيام دولة فتية في مصر والشام اقرب لمصالح دولته من الاستبقاء على الدولة العثمانية بكاملها ام لا او بعبارة اخرى ما اذا كان الحل الذي لُجئ اليه في اليونان هو ما يجوز تطبيقه في مصر والشام ام لا[١٤٩] ؟

وكان العزيز قد نال من انتصاراته في الحجاز ونجد وفي الموره ما أغناه عن اية دعاية مصطنعة في العالم الاسلامي وقد طبق صيته الافاق وأصبح ذكره على لسان كل متمسك بالشرع والتقاليد وصار بامكانه ان يعارض السلطان ذاك الذي اجترأ على كل قديم فتزيا بزي الافرنج وأمّر من أمر منهم في الجيش والاسطول مما دعا الى معارضة رجال الدين وتجرئهم عليه حتى اعترضه احدهم على جسر غلطه وقال له « كاور سلطان » سلطان كافر !

القوى المتقاتلة

١ ــ جيش العزيز واسطوله

وكان جيش العزيز مؤلفاً من سبعين الف مقاتل نظامي منهم ثمانية عشر الاياً من المشاة وثمانية الايات من الخيالة والاي من المدفعين ووحدات من المهندسين واللغامين . وكان لدى العزيز ايضاً عدد يصعب تحديده من العساكر غير النظامية يكثر ويقل حسب الظرف والحاجة . وكانت البعثة الفرنسية العسكرية التي ترأسها الجنرال بواييه قد اشرفت على تدريب المشاة فقامت بمهمتها خير قيام من حيث انتظام الحركات ودقة اطلاق النار وسير طوابير الهجوم . وُعني الكولونيل راي الافرنسي بمدفعية الجيش فادخل عدة تحسينات بمصانع الاسلحة في القاهرة . وكان ابراهيم باشا قد أُعجب كل الاعجاب بالخيالة الفرنساويين ابان حرب المورة ووصف ما شاهده لوالده فقرر هذا اعادة تنظيم الفرسان في جيشه وعهد بذلك الى الضابط الفرنسي بولان دى تارليه

(١٤٩) اطلب انكلتره والقرم للدكتور هارولد تمبرلي فهو افضل ما صنف في سياسة بريطانية آنئذٍ ص ٥٨–٦٢

فشكل سبعة الايات لهذه الغاية واختار جنودها من بين عربان الصحراء. وابتاع خيولها من الشام ودنقله وعتادهـا من فرنسه . فجعل ابراهيم من هذه الالايات السبعه لواءات ثلاثة وكان الجنرال بوايه قد اقترح على العزيز تأسيس مدرسة اركان حرب لتنظيم القيادة فوافق العزيز على ذلك وفتحت هذه المدرسة ابوابها في ربيع السنة ١٨٢٥ برئاسة ضابط افرنسي آخر هو جول بلانا ومعاونة الاخوين أدولف وبولان دي تارليه وكلاهما من امهر ضباط أركان الحرب في فرنسة . ولكن الطلبة لم يتذوقوا علوم هذه المدرسة وآثروا الطيش والكسل فبقي جيش العزيز ناقصاً في ضباطه(١٥٠) . ومن هنا قول الجنرال ويغان ان ضباط الجيش المقاتل عام ١٨٣١ كانوا يعبثون بالقوانين والانظمة ولا يكترثون بجنودهم ويؤثرون السير في مؤخرة هؤلاء الجنود بدلًا من الراس . ولكنه يعترف بفضل الجنود انفسهم فيذكر حبهم للقتال واندفاعهم في سبيله بشجاعة ونشاط ويرى انه وان اعوزهم المظهر فانهم ظفروا بالجوهر وانه كفاهم فخرًا ان تطلب حكومة شارل العاشر معونتهم لفتح الجزائر . وكان القائد الاعلى لهذا الجيش ابراهيم باشا نجل العزيز الاكبر قويّ البنية صحيح العقل واسع الحيلة حازماً عادلًا شفوقاً كريماً . وكان شديد اليقظة كالصقر يدهش جنوده بسرعة تنقله بينهم ينام نومهم ويأكل اكلهم ويجلس معهم ويصغي الى اقوالهم فيبث في قلوبهم الشجاعة .

وكان لدى العزيز في لبنان من جنود حليفه الامير الشهابي الكبير ما لا يقل عن عشرة الاف مقاتل وقد صهرتهم الحرب رجالًا خبروا عساكر الدولة فيها مرارًا وانتصروا عليها تكرارًا يحسنون الرماية ويعرفون الارض ويتقدون حماسة للتخلص من الاتراك وظلمهم .

وكان العزيز قد أعاد النظر في اسطوله بعد نوّارين فابتاع ما ابتاعه من اوروبة وانشأ ما انشأ في حوض الاسكندرية واستقدم رجال الاختصاص من فرنسه وبريطانية فأصبح لديه في السنة ١٨٣١ ثلاث وعشرين سفينة حربية منها سبع فرقاطات وست قروبات وثلاثة اباريق وسبع سفن مدفعية وغيرها من النقالات الصغيرة . وكان عثمان نور الدين بك قائد الاسطول قد صرف سبع سنوات في اوروبة اجاد في خلالها بعض لغاتها كالافرنسية والايطالية ووقف على مدى تقدم العلم فيها فعاد يؤيد الاصلاح بجد ونشاط وتقرب من العزيز فنال شطرًا وافرًا من عطفه وأصبح نافذ الكلمة. وكان ذكيًا خفيف الروح يتودد لرؤسائه ومرؤوسيه

(١٥٠) اطلب التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير للقائمقام عبد الرحمن زكي ص ٢٥٧ - ٢٧٤ و ٣٩٠-٣٩١

فتألق نجمه وعقدت له راية الاسطول . وكان يعاونه في سفينة القيادة كل من الكابتين بوسون والكابتين هوسار الافرنسيين .

٢ ــ جيش السلطان وكان السلطان محمود الثاني قد قضى على الانكشاريين في السنة ١٨٢٦ واستعاض عنهم بجيش نظامي جديد لا يربو على خمسة واربعين الفاً . وعلى الرغم من شدة اهتمامه بملبس هؤلاء ومأكلهم ورواتبهم فانه لم يوفق الى تدريبهم فأعوزهم النظام والانضباط واسترسلوا في النهب والسلب . وكان على رأسهم رجل بدأ حياته حمالاً فجاسوساً ثم أصبح جلاداً فضابطاً فقائداً أعني حسين باشا سرعسكر الجيش العثماني . ألبسه السلطان كسوة القيادة العليا المعطف القصير المزركش واهدى اليه سيفاً مرصعاً بالالماس وجوادين مطهمين وقلده رتبة المشيرية ولقبه بالمشير الاكرم وولاه مصر وكريت والحبشة .

سير القتال

١ ــ قيام الحملة وخصص العزيز لبدء القتال خمسة الايات من المشاة والاي الحرس واربعة الايات من الخيالة واورطة من المدفعين واربعين مدفع ميدان وعشرين مدفع حصار وعشرة مدافع هاون والف خيال من البدو فبلغ مجموعها خمسة وعشرين الف مقاتل على ان ينضم اليها لدى وصولها الى عكة عشرة الاف مقاتل لبناني . ورأى العزيز ان تقوم هذه الحملة في اوائل السنة ١٨٣١ ولكن انتشار الكوليرا في مصر أخر مسيرها حتى خريف هذه السنة . فقامت طلائعها في الثالث والعشرين من شهر تشرين الاول من معسكر الخانقاه بقيادة اللواء ابراهيم يكن باشا ابن شقيقة العزيز ومرّت ببلبيس والصالحية فقاطيه وبئر العبد فالعريش ثم خان يونس وغزة ومنها اتجهت الى يافه . وكان ابراهيم باشا نجل العزيز قد قام من الاسكندرية على رأس ستة الاف مقاتل متجهاً بحراً نحو يافه فوصلها في الثامن من تشرين الثاني . وما ان رسا اسطوله في مياهها حتى نزل وجهاؤها وعرضوا عليه التسليم . فأوفد بلوكاً واحداً لهذه الغاية واستولى على مدافعها وذخائرها . ثم اندفعت كتيبة نحو بيت المقدس فاحتلتها احتلالاً . وقام القائد الاعلى الى عكة فبلغ حيفا في السابع عشر من تشرين الثاني وجعل منها قاعدة للهجوم على عكة[١٥١] . وفيها تقبل طاعة شيوخ نابلس وجنين الشيخ حسين عبد الهادي والشيخ قاسم الاحمد والشيخ عبدالله الجرار واستمع الى شكواهم من

(١٥١) راجع رسائل ابراهيم باشا الى والده في هذه الاونة : المحفوظات الملكية المصرية ج١ ص ١٢٧–١٢٨

سعد بك طوقان وقبل التماسهم فعين الشيخ حسين متسلماً على جنين وبلادها والشيخ محمد القاسم متسلماً على نابلس وأحال اقليم المشاريق الى عهدة الشيخ عبدالله الجرار واقليم بني صعب الى عهدة الشيخ يوسف الجيوسي والشيخ عبد الوهاب الجيوسي . وكتب الى الامير بشير الشهابي يفيده بحضوره واستيلائه على يافه وحيفا(١٥٢) . وفي العشرين من الشهر نفسه قامت طلائع الجيش الى عكة للاستكشاف وواكبتها وحدات الاسطول .

٢ ـ حصار عكة وكانت عكة آنئذٍ بلدة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها بضعة الاف نسمة . وكانت قاعدة ايالة صيدا وحصنها المنيع . يُحدق بها سور داخلي هو سورها الصليبي القديم رممه ظاهر العمر في السنة ١١٦٣ للهجرة (١٧٤٩) وتوّجه بابيات اربعة لا تزال محفوظة على بلاطة رخامية في متحف البلدة :

بأمر الله هـذا السور قاما بعكه من فتى بالخير قاما
ابي الفرسان ظاهر المفـدى اعز الله دولته دوامـا
فباطن بابه الرحمات فيـه وظاهره العذاب لمن تعاما
وذا بالله صـار حمى فأرخ بناك الله فخرًا لا يسامى

وكان هذا السور يشكل مخمساً هندسياً ضلعان من اضلاعه يواجهان البر في الشرق والشمال ويشكلان عند التقائها زاوية حادة اشتهرت في اعمال الحصار . اما الاضلاع الثلاثة الاخرى فانها كانت توازي الشاطئ فتحيط بالبلدة من الجنوب والغرب والشمال.وكان ارتفاع هذا السور في ضلعيه البريين حوالي الاثني عشر متراً وحوالي العشرة في اضلاعه البحرية . وكان له في نقاط معينة ابراج بارزة تزيده مناعة وقت الحرب . وكان يحدق به عند البر خندق عميق عريض انشأه الجزار بعد حصار نابوليون سنة ١٧٩٩ . ولم يكن البحر عميقاً عند الاسوار البحرية فشكل بقرب قعره عقدة حربية عرقلت اعمال القصف في اثناء اي حصار بحري في ذلك العصر . وكان قد انشأ الجزار في اواخر عهده ايضاً سورًا اخر من ناحية البر يحيط بالسور القديم ويوازيه في الشكل والعلو ولكنه يفوقه في العرض . فان عرضه كان يتراوح بين الثلاثين والستين مترًا . وزاده مناعة بابراج مربعة اهمها برج الباب «قبو برجي» عند الزاوية الشرقية الجنوبية وبرج النبي صالح بعده فبرج السبيل وبرج القومندار او برج الزاوية

(١٥٢) يوحنا بحري الى الباشمعاون ١٤ و ١٥ جمادى الاخرة سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج١ ص ١٢٨-١٢٩

فبرج كريم بتشديد الياء . ثم احاط هذا السور الخارجي بخندق يماثل الخندق الداخلي . وحين تزايد تخوف عبدالله باشا من جنده في الداخل واعدائه في الخارج اكمل فيما يظهر قلعة داخل السور الداخلي كان قد بدأ بانشائها الجزار من قبله وأطلق عليها اسم برج الخزنة . وكان قد بولغ في تحصينها فحفرت فيها الآبار وانشئت فيها المستودعات العميقة والمسالك المعرجة والابواب الخفية وما الى ذلك من اساليب الدفاع في ذلك العصر . أكملها عبدالله فيما يظهر فأمر بحفر الاسطر التالية فوق بابها وهي لا تزال قائمة في مكانها :

بنا وأسس هذا الحصن المبارك تقوية للدين المبين
عبدالله باشا والي ايالت صيدا ومتصرف لوا غزة ويافه
ومحافظ عكة وثغور بلاد الشامية راجياً بذلك الثواب
من الملك الوهاب يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من
اتى الله بقلب سليم سنـة ١٢٣٤[١٥٣]

وكان صاحب عكة كما اوردنا سابقاً لا يزال شاباً فانشاً طائشاً معجباً بنفسه وبقلعته . وكان الشهابيُ الكبير اميرُ لبنان قد ارسل اليه من يرده الى الصواب ويحثه على الرضوخ للعزيز موجباً عدم نسيان المعروف ولكن الوالي الشاب اجاب : « انني اعرف شجاعة الامير فكيف اهملها الآن . فالدولة لم تسمح برفع الحصار عني الا بعد عجز عساكرها. وقد عجز بونابرته عن فتح عكة وكانت محصّنة بسور واحد فكيف يقدر عليها العزيز وهي الان محصنة بسورين . وماذا يقدر محمد علي ان يصنع معي . هل هو اكثر من وزير فانا وزير مثله فليكن الامير شجاعاً كما اعهده »[١٥٤] .

وكان ابراهيم باشا لا يزال في حيفا ينتظر وصول ابراهيم يكن باشا وعساكره اليها ويدبر ادارة البلاد المجاورة فعين الشيخ احمد عبد الحليم « شيخ مشايخ » الساحل وألح على الشهابي الكبير بوجوب حضوره الى الاوردو . فأجاب الامير بان سبب تأخره عن الحضور هو قطع دابر الفساد الذي كاد يدب بين الناس من جراء تواتر الاخبار بقدوم العساكر المنصورة وجس النبض في جميع انحاء البلاد قبل القيام منها الى عكة . وطلب الامير اصدار مرسوم شريف بحضوره لغاية في نفسه يفصح عنها لدى وصوله شفاهاً . فأمر ابراهيم باشا باصدار هذا المرسوم.

---

(١٥٣) راجع رسالتنا عكة وحصونها في عهد ابراهيم باشا . وفيها تفاصيل وافية واهم المراجع .
(١٥٤) الجواب على اقتراح الاحباب لميخائيل مشاقه : نسخة جامعة بيروت الاميركية ص ٢١٣

وفي هذه الفترة ايضاً كتب العزيز الى الامير الشهابي يأسف على ما بلغه من انه لم يأتِ الى معونة ابراهيم باشا ويستنتج من ذلك انه انما يبتغي الانضمام اليه بعد الانتهاء من مسألة عكة . ثم ينبهه الى ان هذا الامر لا يحتاج الى الكثير من الملاحظة وعميق التفكير . ثم يتوعده بانه اذا احجم بعد وصول هذا الكتاب اليه عن الانضمام الى ابراهيم باشا فانه يجرد عليه خمسة الايات او ستة تدك دياره دكاً وتقطع دابر الدروز قطعاً(١٥٥) . والواقع ان الشهابي الكبير كان لا يزال مخلصاً كل الاخلاص للعزيز اذ انه كان قد نصح عبدالله باشا بالرضوخ للعزيز واشار على الشيخ حسين عبد الهادي بوجوب ملاقاة المصريين والسير امامهم على عكة مضيفاً انه لدى وصولهم اليها ينزل هو ايضاً على عكة(١٥٦) . وما ان تسلم المرسوم الذي طلبه من ابراهيم باشا حتى قام من قصره في بتدين على راس مئة فارس الى عكة . ولما اقبل على المعسكر في التاسع من كانون الاول سنة ١٨٣١ التقاه الاي من الجند بالموسيقى واطلاق البارود ودخلوا به بموكب عظيم وانزلوه في خيمة قرب خيمة الوزير فالتقاه ابراهيم باشا احسن ملتقى وكتب الى والده يخبره بحضور الامير(١٥٧) . ويرجوه ان ينعم على حفيده بسيف من ذهب او بزوج طبنجات مذهبة(١٥٨) . ففعل العزيز وقال في كتابه الى الامير : « انا عالم بميلك ومحبتك وصدق خلوصيتك وما بقي للاغبرار اثر . فيا امير انا اختيار وانت اختيار واعطاء احدنا الى احدنا شيئاً يكون غشاً من كون هكذا اشياء تليق بالشبان . فالان مرسلين الى ولدنا ولدكم الموجود معكم جوز طبنجات ذهب وسيف ذهب ان شاء الله تعالى عند وصولها واعطايها يتقلد بهم بالصحة »(١٥٩) .

والتفت القائد الاعلى في اثناء اقامته في حيفا الى استقصاء اخبار عدوه فبث جواسيسه في عكة واستمع الى اقوال غيرهم من اهل الخبرة . ومن هؤلاء الخواجه لويس كتفاكو والسنيور بوزيو اللذان كانا قد استأذنا عبدالله باشا بالخروج من عكة لايواء عيالهما في الناصرة ووعدا بالعودة ولكنهما لم يفعلا . وقد اكد الخواجه كتفاكو لابراهيم باشا ان اتباع عبدالله باشا يمقتونه وأنهم يترقبون الفرصة للخلاص(١٦٠) . ولكن شيئاً من هذا لم يتفق وواقع الحال

(١٥٥) المحفوظات الملكية المصرية ج١ ص ١٣٥

(١٥٦) الجواب على اقتراح الاحباب لميخائيل مشاقه ص ٢٢٣

(١٥٧) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٦٧–٥٦٨

(١٥٨) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٣ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج١ ص ١٤٠

(١٥٩) محمد علي باشا الى الامير بشير الشهابي : الاصول العربية ج١ ص ١٠٣–١٠٤

(١٦٠) يوحنا بحري الى الباشمعاون ١٤ و ١٥ جمادى الاخرة سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج١ ص ١٢٩ .. اطلب ايضاً كادالفان وبارو ص ٦٨–٦٩

فان ابراهيم كتب الى والده عند بدء الحصار يقول : « ان احوال عبدالله باشا واعماله تدل في الغالب على الطيش وقلة التبصر والجنون الا ان عمله في هذه المسألة يدل على مهارة وحذق عظيمين . فانه احوج عساكره بحيث لا يتجرأ احد منهم ان يكاشف زميله بما يعلم او يعتقد وبالتالي فانه ليس لدينا لاستمالة هؤلاء سوى اظهار قوتكم القاهرة وعظمتكم الباهرة[١٦١] . وكان العزيز في هذه الفترة يُلحّ على ابنه بوجوب استغواء كبار الرجال في عكة بالمال فيقول ان الحكومات تستولي تارة بقوة السواعد وتارة اخرى بقوة النقود فيجيب قائد الجيش انه لم يسمع قط ان الحكومات افتتحت القلاع بالنقود[١٦٢] . وحاول العزيز نفسه ان يطمئن جنود عبدالله باشا باستعداده لدفع جماكيتهم وان يستميل قادتهم بالمال والامان ولكن دون جدوى[١٦٣] .

وبعد ان وصل ابراهيم يكن باشا بمعظم الرجال الى حيفا وتم انزال العتاد اليها امر القائد الاعلى بالزحف على عكة . ولدى وصوله الى سهلها جعل البهجة مقرًا له وركز ميمنته بين البهجة والبحر وميسرته بين البهجة ونهر النعمين . ثم أمر بحفر الخنادق بالقرب من عكة نفسها[١٦٤] — خنادق الغار بلغة ذلك العصر . وفي الثامن من كانون الاول بدأ قصف القلعة من البر والبحر معاً فأطلق الاسطول المصري وحده ما بين التاسعة صباحاً والرابعة بعد الظهر ستين الف طلقة[١٦٥] فتهدم السور البحري في عدة نقاط وتزعزع عدد كبير من البيوت في القسم الغربي من البلدة . وأدى القصف من البر الى نتيجة مماثلة فتثلّم السور الخارجي وظهر خلله في نقاط كثيرة ولكن الجيش لم يتمكن من تسلق الاسوار في النقاط المثلّمة نظرًا لعدم توفر الاكياس والسلال والاخشاب لديه . وتكرر قصف عكة في الشهر نفسه ولكن دون جدوى للاسباب نفسها ولكثرة تهاطل المطر الذي اوقف القصف مرارًا وافسح المجال لعبدالله باشا ورجاله ان يصلحوا ما خربته المدافع . وهبّ العزيز يتلافى ما لمسه من نقص فطلب مهندسين عسكريين من ايطالية وفرنسه .

(١٦١) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ٣ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج١ ص ١٢٧

(١٦٢) الرسالة نفسها .

(١٦٣) محمد علي باشا الى اسعد بك طوقان ١٩ جمادى الاخرة سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج١ ص ١٣١ : يرسل اليه كتاب الامان لاخيه مصطفى بك الذي كان داخل عكة ولرئيس المدفعية فيها .

(١٦٤) كادالفان وبارو ص ٧٣–٧٥ وصل ابراهيم يكن باشا الى جيفا في ٢٠ جمادى الاخرة (٢٧ تشرين الثاني) — المحفوظات ج١ ص ١٣٢

(١٦٥) تاريخ حروب محمد علي وابنه البحرية للاميرال دورانفيل ج٢ ص ٦٣–٦٤

ووصل في هذه الاثناء مصطفى نظيف افندي واحمد توفيق بك من وكلاء رؤساء الاقلام في الصدارة العظمى الى الاسكندرية للتحقيق في الدعوى القائمة بين العزيز وبين عبدالله باشا كما اشرنا الى ذلك سابقاً وأشار مصطفى نظيف افندي الى امكانية احالة ايالة صيدا الى عهدة العزيز فكتب هذا الى ابنه يحتم عليه الاسراع في الاستيلاء على عكة ويلفت نظره الى ان الحرب خدعة وانه من المستحسن ان يستدعي كتخدا عبدالله باشا اليه ويطلعه على مأمورية نظيف افندي ثم يتركه مع الشهابي الكبير لعله يقنعه بزخرف الكلام[١٦٦] . فأقام ابراهيم باشا معالم الزينة في معسكر الجيش وارسل رئيس سعاة البريد الى عكة يبلغ الحاق ايالة صيدا بمصر واسنادها الى العزيز ويدعو كتخدا عبدالله باشا اليه . فوصل رئيس السعاة الى السور وبلغ رسالته وبعد ان حجز نحو ثلاث ساعات تحت السور خرج الكتخدا مع بعض اتباعه. وبعد وصوله الى المعسكر ارتاح برهة في خيمة الامير بشير الشهابي ثم دخل والامير الى خيمة القائد العام وقال اخوكم الباشا يهدي اليكم سلامه ويدعو لكم بالخير . فأجابه ابراهيم باشا سلمه الله ثم قال لقد ألحقت ايالة صيدا بمصر ووجهت الى مولانا وهو يسامح في ما مضى والباشا من ابناء مولانا فاذا فليخرج من عكة وليتفضل الى مصر او ليكن معي في الخدمة هنا فنعمل معاً . ثم أضاف ابراهيم باشا قائلاً نحن نريد منك ان تسعى لاتمام هذا الامر لاننا جميعاً مسلمون اخوان في الدين وأنت ذهبت الى مصر وكنت احد اتباع مولانا الذين أحبهم وانا ايضاً احببتك لذلك . فلما سمع الكتخدا هذا الكلام قال : اني سانقل هذا كله وربما زدت عليه ولكن ليس في يدي من الامر شيء والامير بشير يعرف ذلك . فقال الشهابي : حسن ولكن لم يبقَ ما يُقال وعلائم النهاية ظهرت في الميدان . فأجاب الكتخدا مصالح الباشا أصبحت في يد السرعسكر خورشيد المملوك الذي عينه الباشا حديثاً . ثم استأذن في الذهاب فأُرسل معه رئيس السعاة . وبعد ان اعاقوا رئيس السعاة ساعتين خرج اليه ما يسمونه السرعسكر وهو صبي دون السابعة عشرة واسمه خورشيد مع اميرالاي النظام واربعين من عساكر النظام وقالوا لرئيس السعاة ان جواب الباشا هو هكذا : سلم على اخي الباشا وقل له نحن لا نصدق الكلام فاذا كانت الدولة قد ألحقت ايالة صيدا بمصر فليرسلوا لنا الاوامر لنراها ونحن نرسل الجواب بمقتضاها . نحن لم نحارب بعضنا بعد والامر لا ينتهي بحصار عكة اربعين او خمسين يوماً وبسقوط كم حجر منها فلنحمل على بعضنا بالسيف والخنجر وعندئذ نتفاهم . ويقول ابراهيم باشا في تقريره هذا ان باش جاويش عبدالله باشا الذي خرج

---

(١٦٦) ٢٧ رجب ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ايضاً ج١ ص ١٦١

مع الكتخدا قال لرجال الامير بشير الشهابي انه قُتل من جنود عبدالله باشا حوالي سبع مئة . ثم يقول ان الامير المذكور يقدر عساكر عكة بالفين وسبع مئة او الفين وثمان مئة[١٦٧] .

ووافق اعمال الحصار هذه قحط وغلاء . فاضطر القائد الاعلى ان يستقدم مؤونة جيشه من مصر بدلًا من ابتياعها في الاسواق المحلية وان يستقدم كميات اخرى لتموين الاهالي . وهكذا فاننا نراه يكتب الى والده في السابع والعشرين من رجب سنة ١٢٤٧ يصف القحط في البلاد ويرجو شحن كميات كبيرة من البقسماد والقمح والدقيق والذرة والفول والشعير والعدس والارز تكفي لمدة بضعة اشهر . وبعد ذلك بيومين يرجو ارسال كمية كبيرة من الذرة لبيعها في ثغور الشام . ونرى العزيز في الوقت نفسه يكتب الى متسلم القدس فيحيطه علماً بالقحط فيها ويأسف ان الحنطة قليلة في مصر ولكنه ينبئه بانه امر بارسال الف اردب من الارز لتباع بسعر السوق[١٦٨] .

لمس ابراهيم نواقص جيشه وأحاط علماً بجميع هذه الصعوبات فرأى ان يتريث قليلًا في امر الهجوم على عكة وان يكتفي الى أمد معين بتشديد الحصار عليها ليمنع وصول المدد اليها . فشاور الشهابي الكبير وقر قرارهما ان يُصار الى احتلال جميع الثغور الشامية لمنع المدد . وطلب الى مصطفى اغا بربران يقوم من عكة باورطة من المشاة فيضع بلوكاً منها في صور واخر في صيدا واثنين في بيروت ويتوجه بالاربعة الباقية الى طرابلس ثم يكتب منها الى مصطفى اغا هارون في اللاذقية فان قبل وامتثل كان به والا فيرسل مصطفى اغا بربر متسلماً من قبله اليها[١٦٩] .

وكانت الدولة العثمانية قد احتاطت في امرها فعينت محمد باشا والي الرقة وقائمقام حلب سابقا واليًا على حلب « وسردار سواحل بلاد العرب » وألحقت بـه كلًا من علوش باشا وعثمان باشا امين المعادن وعثمان خيري باشا متصرف قيصرية . وأمرت محمد باشا والي سلستره ان يسير بعساكر الروملي الى الاناضول كما اخرجت خمسين الفاً من « نخبة العساكر المدربين » من ناحيتي كيفه لق وطوسقه لق من بلاد الارناؤوط . وعينت عثمان باشا قائمقام الشام سابقاً والياً

(١٦٧) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٠ شعبان سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات نفسها ج ١ ص ١٦٧–١٧٠

(١٦٨) المحفوظات ايضاً ج١ ص ١٥٩ و ١٦١ و ١٦٢

(١٦٩) يوحنا بحري الى الباشماون ١٣ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج١ ص ١٤١

على طرابلس لايجاد قوة عسكرية كافية في هذه البلدة ولتسهيل اعمال الجردة واعداد العدة لتامين القيام بفريضة الحج[١٧٠].

وما ان وصل عثمان باشا والي طرابلس الجديد الى حلب واتصل بمحمد باشا سردار سواحل بلاد العرب حتى حرر كل منهما الى الشهابي الكبير امير لبنان يمدحانه ويستميلانه الى جانب الدولة. ويتضح من اسلوب عثمان باشا وطريقته في الكتابة انه كان يعلق امالًا كبيرة فيما اذا نجح في استمالة الامير. فهو يستهل احدى رسائله الى الامير اللبناني بالعبارات التالية: «صاحب العطوفة والسعادة والمروءة والرأفة اخي حميد المزايا سلطاني واميري الكريم». ويقول في محل اخر: «اني وان كنت لم اتشرف بمقابلتكم للان فاني نظرًا لوجودي مدة سبع سنوات بالشام وبلاد العرب وكنت اجتمع بعبد القادر اغا واحمد آغا ترجمانكم بالشام فنذكركم بالذكر الجميل والسيرة الحسنة ولهذا السبب لم آلو جهدًا ولم اوخر وسعاً في الاطراء بكم والثناء عليكم بالصدق والامانة والدراية والفطانة واخلاصكم الشديد للدولة العلية كما برهنتم على ذلك في مواقع كثيرة وانكم لا تريدون قط الانفصال عن الدولة بحال من الاحوال ولا ترمون الى ذلك ابدًا وقد ذكرت كل هذا للحكومة العثمانية ولاسيا لقايمقام السرعسكر ولدولة السرعسكر خسرو باشا محمد. واني واعدك بان اقوم بجميع ملتمساتكم كلما وجدت لدى الحكومة العثمانية»[١٧١]. وكتب محمد باشا والي حلب وسردار سواحل بلاد العرب في هذه الآونة نفسها الى ابراهيم باشا يرجوه ان يتخلى عن متسلمية طرابلس وان يستدعي مصطفى اغا بربر منعاً لوقوع الفتنة بينه وبين عثمان باشا وتسهيلًا لسفر المحمل الشامي[١٧٢].

وكان العزيز يرى في تعيين عثمان باشا والياً على طرابلس مجرد جسّ نبض فقط فكتب لابنه ابراهيم «بوجوب طرد كل شخص ياتي الى الايالات التي وقعت بيده» وتيقّن في الوقت نفسه من ورود الفرامانات السلطانية باحالة الايالات الجديدة الى عهدته[١٧٣]. وهكذا فاننا نرى ابراهيم يعقد مجلساً استشارياً مؤلفًا من الامير الشهابي الكبير والمعلم يوحنا بحري وعثمان بك لدرس الموقف فيقر قرارهم على تشكيل جيش من المشاة والخيالة والمدفعيين وارسالهم

(١٧٠) علي نجيب افندي الى عبدالله باشا ١٥ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١): المحفوظات ايضاً ج١ ص ١٤٥-١٤٧. راجع ايضاً الفرمان السلطاني الى والي طرابلس هذا في المجلد نفسه ص ١٤٧-١٥٠

(١٧١) الاصل نفسه: المحفوظات الملكية المصرية ج١ ص ١٩١-١٩٤

(١٧٢) ٢٣ شعبان سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢): المحفوظات ايضاً ج١ ص ١٨١-١٨٢

(١٧٣) المحفوظات ايضاً ج١ ص ١٧١

الى مرج ابن عامر لايقاع الرعب في قلوب المعارضين في جبال نابلس والقدس وعلى قيام هذا الجيش نفسه بعد بضعة ايام من وصوله الى المرج المذكور — على قيامه الى جسر بنات يعقوب الحد الفاصل بين ايالتي دمشق وصيدا فرجعيون . وتقرر في الجلسة نفسها ارسال الامير خليل الشهابي نجل الامير بشير على راس الف مقاتل لبناني الى طرابلس وارسال خمسة بلوكات من مشاة الجيش اليها بالاضافة الى الاورطة الموجودة فيها وتعزيز البلوكين الموجودين في بيروت ببلوكين اخرين وانه بعد ذلك اذا زحف احد من حلب على طرابلس يقوم ابراهيم باشا بنفسه لمجابهته بجيش خاص واذا أعلنت الدولة الحرب يزحف اللبنانيون بقيادة الامير امين الشهابي نجل الامير بشير على دمشق . ويبقى الشهابي الكبير في المعسكر العام يدير مصالح البلاد الادارية ويختم ما يلزم من الاوراق والاوامر بختم ابراهيم باشا وذلك نظراً لاحاطته التامة باحوال بر الشام وفهمه الكامل لحركات سكان هذا القطر وسكناتهم . ورأى ابراهيم ايضاً ان يعين من رجاله الاخصاء حكاماً على القدس ونابلس وبيروت وغيرها من المراكز الهامة[١٧٤] . وكتب الامير بشير الى نجله الامير خليل يستدعيه اليه فقام الى عكة وتفهم مهمته وعاد الى الشويفات حيث تجمعت الرجال واكثرهم من النكديين والتلاحقة والملكيين والحوازنة والحبيشيين فسار بهم الى طرابلس[١٧٥] . وكان قد سبقه اليها ادريس بك قائد الالاي الثامن عشر فاصبحت حامية طرابلس ثلاثة الاف رجل نصفها مصري والنصف الآخر لبناني[١٧٦] .

وكان عثمان باشا قد قام من حلب على راس بضعة الاف مقاتل غير نظامي واتجه بهم الى اللاذقية . ولدى وصوله اليها ارسل كتخداه الى عكار ونواحيها ليكرز باسمه وباسم السلطان فيعد الطريق له قبل وصوله[١٧٧] . ثم تقدم الباشا نحو طرابلس مركز ايالته واستقر

---

(١٧٤) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٩ شعبان سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ج١ ص ١٧٣— ١٧٧ وفي اخبار الاعيان لطنوس الشدياق : « وفيها كتب العزيز الى ابنه ان يفوض الى الامير معاطاة احكام ايالة صيدا وان يكون تصريف جميع المتسلمين ورجال المقاطعات من يده — ص ٥٦٨

(١٧٥) اخبار الاعيان ايضاً ص ٥٦٩

(١٧٦) كادالفان وبارو ص ١٠٦ . راجع المحفوظات ج١ ص ٢٣١ وفيها ان مجموع الحامية ستة الاف .

(١٧٧) كاتب مصطفى اغا بربر الى يوحنا بحري ١٣ رمضان سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ج ١ ص ١٩٨—٢٠٠

في قرية المنية ووجه منها خطاباً الى حامية طرابلس ذكّرهم فيه بانهم من رعايا السلطان وطلب اليهم ان ينقادوا لاوامره وكتب بمثل هذا الى مصطفى اغا بربر[١٧٨] . ثم نهض الى طرابلس فوصلت طلائع جيشه الى ابوابها . وما ان فعلت حتى خرج اليهـا ادريس بك باورطة من الالاي الثامن عشر فرد هذه الطلائع على اعقابها ولحق بهـا الى السهل خارج المدينة والى شمالها الشرقي فكرّت عليه كرة مفاجئة اسفرت عن تقهقره وضياع قسم كبير من وحداته المقاتلة . وعندئذ تجرأ عثمان باشا وتقوّى قلبه فهاجم طرابلس بقواتـه في الحادي والثلاثين من اذار فخرج لقتاله اللبنانيون بقيادة اميرهم خليل الشهابي فكسروا الخيالة في السهل وقلعوا الارناؤوط من التل وجدّوا في اثرهم حتى بلغوا البدّاوى ثم عادوا ظافرين[١٧٩] . وكان الامير خليل قد لمس عطفاً من رجال الدين في طرابلس واعوانهم على عثمان باشا وما فتئ ان تيقن من ذلك عندما وقعت رسالة من عثمان باشا اليهم في يد مصطفى اغا بربر تبين منهـا انهم فاوضوه بتسليم المدينة اليه . فاتفق ومصطفى اغا بربر على اعتقـال القاضي والمفتي وبعض الاعيان ووضعهم في القلعة وكتب الى والده يخبره بذلك كله[١٨٠] . فنهض ابراهيم باشا على رأس قوة مؤلفة من عشرة الاف مقاتل منها الاي الغارديا والاي الخيالة السابع وستة مدافع فوصل الى البترون في السابع من نيسان سنة ١٨٣٢ (٥ ذي القعدة سنة ١٢٤٧) وبات فيها تلك الليلة . وما ان تحقق عثمان باشا من وصول خصمه الى البترون حتى استولى عليه الذعر وترك خيامه وجرحاه ومقدارًا من الذخائر والجبخانه وفرّ شمالًا . وتُليت اخبار هذا الفرار في خيمة الامير بشير الشهابي في معسكر عكة وكان بين المستمعين الشيخ حسين عبد الهادي والشيخ احمد عبد الحليم والشيخ محمـد طاهر الحسيني مفتي القدس فدعوا جميعهم بالنصر «وقرأ المفتي الحديث لعنة الله على السلطان الضعيف»[١٨١] . ثم أرسل ابراهيم باشا الامير عبدالله الشهابي الى المنيه ليضبط مخلفات عثمان باشا وجدّ هو في اثره الى حمص . ولدى وصوله اليها تقبّل طاعة اهلها وعلم ان طلائع الجيش السلطاني كانت قد وصلت الى حماه . فصمم على ضربها ضربة حاسمة ولكنه عاد فآثر التراجع الى بعلبك ليكون اقرب الى نقطة التموين التي كان قد انشأها في زحلة واقام على حراستها فرقة من اللبنانيين بقيادة الامير قاسم الشهابي

---

(١٧٨) المحفوظات ج ١ ص ٢٤٨ و ٢٥٢-٢٥٣

(١٧٩) اخبار الاعيان ص ٥٧٠

(١٨٠) اخبار الاعيان ايضاً ص ٥٦٩-٥٧٠ راجع ايضاً لبنان في عهد الامراء الشهابيين ج ٣ ص ٨٤٠-٨٤٢ والمحفوظات ج ١ ص ٢٠٣-٢٠٤

(١٨١) يوحنا بحري الى الباشماون ٨ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ : المحفوظات ج ١ ص ٢٥٢

نجل الامير بشير . وما ان وصل خبرُ هذا التراجع الى الباشاوات في منتصف الطريق بين حمص وبين حماه حتى جدوا في اثره فلحقوا به في سهل الزراعة بالقرب من قرية القصير. فدبر ابراهيم خطته وجعل بينه وبين اخصامه ترعة ماء ثم شطر خيالته شطرين وركز خلف كل منها مدفعية كافية وأوهم خصمه انه سيلزم خطة الدفاع . فانخدع الباشاوات وهجموا بكل ما لديهم . فلبثت الخيالة المصرية صامتة حتى اذا اصبح الخصم على مسافة معلومة ارتدت عليه بسرعة عجيبة والتفت حوله وعندئذ بدأت المدافع المصرية تقذف نيرانها فاصطادت الخيالة عساكر الباشاوات صيدًا وقتلت منهم ما يقرب من الثلاث مئة فارتدوا على اعقابهم خائبين[١٨٢] .

وظنت اوساط المعارضة في لبنان ان دورها قد انى فأصغت الى اغراء محمد باشا والي حلب والى صوت بعض من التجأ اليه من زعمائها كاولاد الشيخ بشير جنبلاط والشيخ اسعد النكدي[١٨٣] ووقعت من جراء ذلك مشادة بين بعض الدروز وبين بعض النصارى في دير القمر وفي المتن وفي زحلة . فكتب الشهابي الكبير الى هؤلاء يتهددهم ورأى ان يستغل وجود ابراهيم باشا وجيشه في البقاع فقام من عكة الى بتدين وارسل عوضاً عنه الاميرين ملحم حيدر وفاعور قعدان الشهابيين ثم قام مع ابراهيم باشا على راس قوة مصرية الى ديرالقمر وانزلها في دور النكديين فوقع الرعب في قلوب المعارضين وجاؤوا الى بتدين مستسلمين طائعين[١٨٤] . وبعد ان قام ابراهيم باشا من بتدين الى زحلة كتب الى الشهابي الكبير ان يرسل بعض وجوه المعارضة الى المسكر في عكة فأرسل الامير من اللمعيين الامير سعدالدين مراد والامير بشير قايدبيه . ثم ارسل الامير امين ارسلان والشيخ حسين تلحوق والشيخ يوسف عبد الملك . وأمر الوزير ايضاً بداهمة الامير بشير الشهابي الصغير والامير سلمان سيد احمد والامير حسن اسعد الشهابيين لانه بلغه انهم سينهضون لملاقاة عساكر السلطان[١٨٥] . ولكن هذا كله لم يمنع عددًا من النكديين ورجالهم من الفرار الى حمص ومعهم الشيخ

(١٨٢) الاصول العربية : ابراهيم باشا الى الامير قاسم الشهابي ج١ ص ١٢٠ راجع ايضاً المحفوظات الملكية المصرية تقرير يوحنا بحري الى الباشمعاون ج ١ ص ٢٧٠–٢٧٣

(١٨٣) راجع بعض رسائل هؤلاء الى النكديين وبيت الاعور وبني هلال في المحفوظات الملكية ايضاً ج ١ ص ٢٥٧–٢٦٠

(١٨٤) اخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٧١ راجع ايضاً كتابنا مخطوطة القس انطون الحلبي ج١ ص ١٣ و ١٥ . اطلب ايضاً المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٢٨٤ و ٢٨٦

(١٨٥) تجد تفاصيل هذا كله في اخبار الاعيان ايضاً ص ٥٧٢–٥٧٣

محمد القاضي الشهير ومن المحاربة مع الجنبلاطيين والعماديين هناك الى جانب الدولة . فأمر ابراهيم باشا بهدم دور الذين توجهوا الى حمص فنُفذ أمره في كل من دير القمر وكفرنبرخ والمختاره[١٨٦] .

وبعد ان أمن شرّ المعارضة في لبنان على هذا الشكل قام القائد المصري الى بعلبك ينظم حاميتها ليلهي بها العثمانيين عن عكة . وبعلبك كما لا يخفى تهدد بموقعها المتوسط كلًا من دمشق وحمص وطرابلس وبيروت وتسيطر في الوقت نفسه على طريق عسكري شهير يصل شمالي سوريا بجنوبيها ويضيق جدًا عند بعلبك نظرًا لاقتراب السلسلتين اللبنانيتين بعضهما من بعض . وكان ابراهيم باشا قد أمر ابن اخيه عباس باشا ان يأتي الى بعلبك على راس الالاي الثاني عشر من المشاة والاي الخيالة الثالث وبطاريات ثلاث ففعل وأصبح لدى ابراهيم في تلك البرهة في بعلبك اربعة الايات من المشاة والايان من الخيالة ومدفعية كافية[١٨٧] .

وكان السلطان قد أصدر «التوجيهات» السنوية بمناسبة عيد رمضان واستهلها بارجاء تعيين حكام مصر والحجاز وكريت الى ان يكون محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا قد رجعا عن الخطأ الذي ارتكباه . وتوقع ان يكون في ذلك ما يكفي لدخولهما في الطاعة . ولكن العزيز وابنه ثابرا في خطتهما وتابعا اعمال الحصار في عكة مُصرين على موقفهما مؤكدين انهما انما يرميان بذلك الى رفع بلية عكة وان الاوفق ان تعود القوات المحتشدة في حمص الى حلب اذ لا بد من صدور العفو السلطاني[١٨٨] . ثم كان ما كان في الزراعة فأصدر السلطان فرمانًا همايونيًا الى حسين باشا « السردار الاكرم » بيّن فيه خروج محمد علي باشا عن الطاعة وأوجب قصاصه وصدرت الفتوى بهذا من جانب شيخ الاسلام مذيلة بامضاءات اربعين عالمًا من علماء الآستانه[١٨٩] . وأعلم السلطان الدولَ بخروج محمد علي باشا عليه وبعزله من منصبه وتجريد

(١٨٦) المرجع نفسه . ويرى المؤرخان الافرنسيان المعاصران كادالفان وبارو ان الامير خليلًا ابن الشهابي الكبير كان يقوي هذه المعارضة ويقول قولهما لان والده كان قد قدم اخاه امينًا عليه فسلمه مقاليد الامور في اثناء غيابه في عكه . ولكننا لم نقف حتى هذه الساعة على اي مصدر آخر يقول هذا القول ولا نرى في سلوك خليل ما يؤيد مثل هذا الاستنتاج . راجع كتابهما المشار اليه آنفًا ص ١٢٥

(١٨٧) كادالفان وبارو ص ١٠٨-١٠٩

(١٨٨) محمد علي باشا الى الباشاوات في حمص ١٢ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) لم يرسل . اطلب المحفوظات ج١ ص ٢٦١

(١٨٩) كادالفان وبارو ص ١١٤-١٢٣

حملة لتأديبه وبفرض حصار بحري على مصر وتوابعها وطلب اليها ان تحافظ على الحياد التام فتمتنع عن امداد الباشا بالمؤن والذخائر والعتاد[١٩٠] . فهبَّ الكونت مترنيخ وهو المحافظ على كل قديم وعلى الحقوق الموروثة هب يُعلم العزيز باستيائه وارسل مركبين حربيين الى مياه الشام ومصر يرقبان الامور وينقلان اخبارها الى حكومة الآستانة[١٩١] . وأظهرت حكومة القيصر الروسي ارتياحها لبيان السلطان ولم تخف موقفها عن العزيز . اما حكومة انكلترة وحكومة فرنسة فانها لم تظهرا اي عداء للعزيز[١٩٢] . وقابل العزيز هذه الفتوى السلطانية بغيرها من نوعها صدرت عن شريف مكة المكرمـــة محمد بن عون وقضت بخروج السلطان عن قواعد الدين الحنيف[١٩٣] .

وكان العزيز منذ اخفاق رجاله في هجومهم الاول على عكة في شهر كانون الاول يُلحّ بوجوب اعادة الكرة وتذليل هذه العقبة كي لا تُجرَح معنوياته وتنقص سطوته فتنفجر حرب اهلية لا تُحمد عقباها . ولذا فاننا نراه يستدعي اعضاء ديوانه العالي في اوائل شهر شباط الى جلسة فوق العادة لاستماع تقرير رفعه اليه عثمان نور الدين بك ولدرس الموقف على ضوء هذا التقرير . وما ان فعل حتى حرر لابنه ابراهيم موجباً اقتحام عكة وانهاء قضيتها . فقام قائد الجيش في عيد رمضان في الرابع من اذار يصلي عكة ناراً حامية دامت اسبوعاً كاملاً . فزاد الاسوار خراباً ووسع ثغراتها وخطب في رجاله مبيناً ثواب عملهم ومشيراً الى ما جمع عدوه من اموال ستصبح حتماً مالاً حلالاً لهم . وعند الفجر هبَّ الرجال الى الثغرة في برج الباب فتسلقوا السور الخارجي وغنموا مدفعين ثم تدفقوا الى الخندق الداخلي فتسوروا السور بعده ونفذوا منــه الى قلب البلدة مكرهين ارناؤوط عبدالله الى الاحتماء في ابراج السور البحري . ثم اطلقت عليهم النار فجأة من نوافذ المنازل المجاورة وتفجر البارود تحت اقدامهم فهالهم الموقف وانتثر عقدهم فانسحبوا الى حيث اتوا تاركين وراءهم مئتي قتيــل وجريح .

---

(١٩٠) البارون دي فارين الى وزير الخارجية في ١١ ايار سنة ١٨٣٢ : الحرب الشامية الاولى لجورج دوان ج١ ص ١٨٣–١٨٩

(١٩١) ميمو الى سباستياني في ٢٩ ايار سنة ١٨٣٢ : المؤلف نفسه ج١ ص ١٩٩–٢٠٠

(١٩٢) المؤلف نفسه ايضاً ج ١ ص ١٨٣–١٨٥ و ٢٠٠–٢٠٢ راجع كذلك كادالفان وبارو ص١٢٤ – ابراهيم يكن باشا الى محمد علي باشا ٥ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ج ١ ص ٢٩٠ اطلب ايضاً تقرير لافيزون قنصل روسية الى بوتينيف ١٨ حزيران سنة ١٨٣٢ : محمد علي والمحفوظات الروسية لرينه قطاوي ج ١ ص ٥٠٨–٥١٠

(١٩٣) كادالفان وبارو ص ١٠٣

ولكنهم زادوا بعملهم هذا خبرة وازدادوا ثقة وشجاعة[١٩٤].

ثم قام ابراهيم الى طرابلس فحمص فالزراعة فبعلبك فزحلة فبتدين كما سبق فاوضحنا ولم يبقَ امام اسوار عكة سوى عشرة الاف مقاتل بقيادة ابراهيم الصغير — ابراهيم يكن باشا — ولكن اعمال القصف لم تنقطع فانفتحت ثغرتان جديدتان في السور الشرقي وتهدم او احترق قسم كبير من البلدة واضطر عبدالله باشا ان يهجر قصره ويختبئ مذعوراً في سراديب برج الخزنة خوفاً من رجاله[١٩٥].

وكان ابراهيم باشا لا يزال في لبنان ينتظر قدوم عساكر السلطان الى بعلبك[١٩٦]. ويرى انه على اتم الاستعداد لمجابهتهم ولاسيما وانه قد انهى فتنة جبل الدروز وجيشه المرابط في زحلة يوازي اضعاف قوة العدو في حمص. وبالتالي « فلا مجال للتشاؤم وزحلة تبعد مرحلتين عن بعلبك بالسير السريع والبريد بين حمص وبعلبك وزحلة وعكة منتظم كل الانتظام »[١٩٧]. وكان العزيز يشارك ابنه في رأيه هذا فيهزأ من اقوال رجال الآستانه ويسخر من تبجحهم بجيشهم واستعداداتهم فيشير الى اندحارهم في حمص والى تعيين حسين باشا نفسه سرداراً اكرم[١٩٨]. ولكنه كان قد بدأ يشعر باهتمام الدول بقضيته وباحتمال تدخلهم بعد سقوط عكة فأوجب انهاء مسألتها عن يد السرعسكر نفسه ولاسيما فتنة الدروز كانت قد اخمدت بفضل بسالته[١٩٩].

وعاد ابراهيم الى عكة في اواخر الثلث الثاني من شهر ايار سنة ١٨٣٢ فعاين اعمال الحصار بنفسه وأمر باتخاذ التدابير اللازمة وكتب الى والده بان نقل الذخائر والمهمات سيتم في زهاء يومين فيبدأ عندئذ باطلاق النيران على القلعة[٢٠٠]. وكان ابراهيم يكن باشا قد اتصل بالسلطات في عكة للمفاوضة قبل وصول السرعسكر باسبوع فرفضت هذه ارسال من يفاوض

---

(١٩٤) كادالفان وبارو ص ٩٣–٩٥

(١٩٥) المؤلف نفسه ص ١٢٧–١٢٨

(١٩٦) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ١٢ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ج١ ص٢٩٧

(١٩٧) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٨ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ج١ ص ٣٠٢

(١٩٨) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٢٨ ذي القعدة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ايضاً ج ١ ص ٢٨٥

(١٩٩) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٦ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوعات نفسها ج ١ ص ٢٩١

(٢٠٠) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٩ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ (١٨٣٢) : المحفوظات ج١ ص ٣٠٤

من قبلها وقالت من يريد ان يفاوضنا بشيء فليأتِ الينا الى القلعة[٢٠١] . فأمر ابراهيم باشا باعادة الكرة عملاً بتوصية والده فارسل تاتاره الى عكة يحمل انذاراً اخيراً . ولكن عبدالله باشا رفض قائلاً لم يمض على الحصار سوى بضعة اشهر وبامكاننا ان نتابع الدفاع بضعة سنين فلننتظر خمس سنوات اخرى ! فأمر ابراهيم بقصف القلعة طيلة ذلك الليل وبينما كانت المدافع تطلق نيرانها قام المهندسون العسكريون بحفر الخنادق قرب الاسوار وبنصب المدافع اللازمة ونقل السلالم وما الى ذلك . وفي صباح اليوم التالي — ٢٧ ايار ١٨٣٢ — بدأ هجوم عام فقامت كتيبة من الاي المشاة الثاني الى الثغرة في برج الباب وكتيبة ثانية من الالاي نفسه الى ثغرة في برج النبي صالح وثالثة من الالاي نفسه ايضاً الى ثغرة برج الزاوية وقامت كتيبة من الاي المشاة العاشر الى برج كريم لتسلق جدرانه . وأبقى ابراهيم كتيبتين من الالايين الخامس والعاشر تحت تصرفه ليدفع بهما الى برج الزاوية عنـد اللزوم ووضع تحت تصرف ابراهيم يكن باشا الكتيبة الرابعة من الاي المشاة الثاني لتدعم الهجوم عـلى برج الباب . ورأى ابراهيم ان يلقي خصمه في اقصى ميسرته في برج كريم اولاً فيضربه ضربة قاصمة في القلب في برج الزاوية وقامت كتيبة الاي المشاة العاشر تتسلق جدران برج كريم فاصلتها الحامية ناراً حامية ادت الى اصابات كثيرة غير منتظرة . ولكن كتائب الالاي الثاني نجحوا في مهمتهم بادئ ذي بدء في برج الباب وبرج النبي الصالح وما ان فعلوا حتى هب ابراهيم بجنوده الى برج الزاوية فركز قوته فيه . وعندئذ تحولت نيران بعض مدافع السور الخارجي فبدأت تنصب على استحكامات السور الداخلي وبرج الخزنة والبلدة . وعندئذ برز عبدالله باشا نفسه الى الميدان وبـدأ هجوماً معاكساً مستهدفاً قوات خصمه في برج الزاوية بصورة خاصة فصادف بعض النجاح ولكن خسائره في الرجال اضطرته الى التراجع الى السور الداخلي. وعند الخامسة مساء نجح ابراهيم نفسه على راس كتيبة من الالاي العاشر في تسلق السور الخارجي بين برج الباب وبين « مدورة الانكليز » في اقصى ميمنة خصمه واستقر في خان الجنائن . وكان السر عسكر في اثناء هذا كله في طليعة جنوده يشرف على تسور الاسوار ممتشقاً حسامه مشجعاً جنوده بشجاعته فكان لوجوده اشد الاثر في ضراوة القتال .

وما ان بدأ الليل يسدل ستاره حتى خرج اعيان البلدة يلتمسون الرحمة . وبعد قليـل خرج وفد آخر مؤلف من مفتي البلدة وامـام واليها وبعض رؤساء المدفعيه يطلبون الامان للباشا وللحامية . فأمن رجال الحامية على نفوسهم واموالهم وبلغ منه ان سمح لهم بان يحتفظوا

(٢٠١) ابراهيم يكن باشا الى محمد علي باشا ١٠ ذي الحجة من السنة نفسها : المحفوظات ج١ ص٢٩٥

بسلاحهم ولكنه لم يسمح لعبدالله باشا باكثر من تامينه على حياته . وعند منتصف الليل خرج عبدالله باشا من سراديب برج الخزنة يرافقه كتخداه خورشيد بك ويتقدمها اللواء المصري سليم بك الذي كان قد اوفد خصيصاً لهذه الغاية . فاستقبله السرعسكر بما لاق بمقامه الوزيري وطلب اليه ان يقدم حساب خزنته وان يسلم امواله . فاعتذر مؤكداً ان صندوقه اضحى فارغاً بعد حصار طويل كثرت فيه مطالب الجند ولاسيما وان كلًا منهم كان يتقاضى سبع مئة وخمسين غرشاً في الشهر . وكان قنصل النمسه لويس كتفاكو قد توقع هذا الجواب في حديث بينه وبين السرعسكر فأحضره السرعسكر وقدمه الى عبدالله باشا قائلًا اترى كيف نجحت في الاعتماد عليه والركون اليه ! وانتهت المقابلة في نصف ساعة وخرج عبدالله وكتخداه فامتطيا خيلها وتوجها الى قصر البهجة حيث بقيا تلك الليلة[٢٠٢] . وفي الغد أمر السرعسكر بنقل عبدالله باشا الى الاسكندرية ليمثل بين يدي العزيز وأمر كلًا من اللواء سليم بك وكاتب الديوان واربعه انفار ان يرافقوه الى مصر . وطلب الى خورشيد بك كتخدا عبدالله باشا ان يبقى في عكة ليشرف على احوال حرم الباشا واتباعه . ولكن الخوف استولى على عبدالله وتبع كتخداه باكياً وقال اما ان يقطع ابراهيم باشا راسي او ان يسمح لخورشيد بك بالسفر معي وبات يتضرع ويبكي حتى أمر السرعسكر بتوجه الاثنين معاً[٢٠٣] . فقاما الى الاسكندرية على ظهر سفينة حربية . وودع عبدالله حصناً كان قد نشأ فيه ثم ما فتئ ان تسلمه فبالغ في الانفاق عليه والتفاخر به ومن ثم تركه قاعاً صفصفاً يعلوه الدخان وتنبعث من جوانبه روائح الجثث المنتنة .

وعلى الرغم من الاوامر المشددة بتحريم النهب والسلب فان الجنود الفاتحين قضوا ليلتهم يفعلون . وفي اليوم التالي اعيد النظام واعاد بعض الجند بعض ما سلبوا . وعاد قنصل النمسة الى عكة بثوبه القنصلي الفضفاض وقبعته المثلثة الزوايا يستغل خراب بلدة طالما استغل اثراءها من قبل . ووضعت السلطات المصرية يدها على مخازن الحامية فوجدت فيها كميات كبيرة من البارود والقنابر والقمح والذرة والارز والعدس تكفي حاميتها مؤونة سنتين كاملتين[٢٠٤] .

وخسر المصريون اربعة الاف ما بين قتيل وجريح . ووقع منهم في اثناء الهجوم الاخير خمس مئة واثنا عشر قتيلًا والف واربع مئة وتسعة وعشرون جريحاً . وتوفي في اثناء الحصار

(٢٠٢) كادالفان وبارو ص ١٢٨-١٣٦

(٢٠٣) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ٢٨ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ (٣٠ ايار سنة ١٨٣٢) : المحفوظات ج١ ص ٣١٣-٣١٤

(٢٠٤) كادالفان وبارو ص ١٣٧-١٣٨

من جراء الامراض المتنوعة الفا رجل . اما خسارة عبدالله باشا فانها لم تتجاوز الالف[٢٠٥] .

٣ ـ فتح دمشق

وكان من جراء هذا الانتصار ان زادت ثقـة الجنود بالقادة وتضاعفت شجاعتهم وانعقدت ألسنة المعارضة في طول البـلاد وعرضها . ورأى العزيز ان لا ينفك عن طمأنة الباب العالي فكتب الى وكيله في الآستانة محمد نجيب افندي في الثاني من شهر محرم اي بعد سقوط عكة بيومين فقط يؤكد ولاءه واخلاصه للذات الشاهانية ولكنه نظرًا لما كان ينشره عبدالله باشا من الاقاويل بين الناس من انه مكلف بالتسلط على مصر ونظرًا لقرب بر الشام من مصر ووجوب المحافظة على وادي النيل فانه التمس الحاق بر الشام بمصر[٢٠٦] .وكتب بعد هذا بثلاثة ايام الى الخواجه بريكس يطلب اليه ان يخبر « الجهات المختصة » اي الحكومة البريطانية انه لا يزال عند وعده وانه كرر الطلب بتوجيه ايالة الشام الى عهدته وانه في حال عدم القبول يكون قد استولى عليها . ثم يطلب اليه ان يعرض هذه المسالة على الوزراء ويسألهم اذا كانت توافق سياستهم ام لا[٢٠٧] .وكتب في الوقت نفسه الى ابنه ابراهيم انه لا يوافق على اللقب « سرعسكر بلاد العرب » الذي اتخذه لنفسه ويوجب الاكتفاء بالاسم ابراهيم كما اكتفى هو بالاسم محمد علي وأضاف قائلًا ان هذه الالقاب جوفاء لا تليق بابراهيم وان استعمالها يدل على الضعف لا على القوة[٢٠٨] .

ويعود العزيز الى الحرب فيوجب استغلال النصر ومتابعة الزحف حتى حلب او التربص ثلاثة اشهر بعد الاستيلاء على دمشق حتى ينفد قوت الاتراك ولكنه يرى في الوقت نفسه ان لا بد من الاتصال بالشهابي الكبير امير لبنان والتداول معه « اذ لا يوجد احـد سواه يصلح للاستشارة »[٢٠٩] . فاتصل ابراهيم بالشهابي الكبير ودرس الموقف معه فاستصوب هذا الهجوم على دمشق اولًا « لانه يوصل الحكومة المصرية الى مقصودها وينيلها مرامها »[٢١٠] . فتبنى العزيز أمر الزحف على دمشق « لتطهيرها » واهدى سلامه الى الشهابي الكبير[٢١١] .

---

(٢٠٥) المؤلف نفسه ص ١٢٨-١٣٩ اطلب ايضاً التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير للقائمقام عبد الرحمن زكي ٤٠٥-٤٠٦ والارقام المدروجة تشير الى الخسارة في الهجوم الاخير فقط .

(٢٠٦) المحفوظات ج٢ ص ٣

(٢٠٧) المصدر نفسه ج٢ ص ٧

(٢٠٨) المصدر نفسه ايضاً ج٢ ص ٩-١٠

(٢٠٩) المحفوظات ايضاً ج٢ ص ٥ و ١٢ و ١٨

(٢١٠) المصدر نفسه ج٢ ص ١٤-١٥

(٢١١) المصدر نفسه ايضاً ج٢ ص ١٥-١٦

وأمر ابنه ان يكتب الى والي دمشق علوش باشا هكذا: يا اخي انا اعلم مقدار الخدمات التي اديتها للدولة وانها كافأتك باصغر المناصب وبما انك سوف لا تتمكن من اجراء اي شيء فانها ستعاقبك كما هو معلوم عنها بالاختبار . فتعال يا اخي ويا مواطني لنتآخى ونتحد معاً لاخراج ملتنا من هذه المذلة[٢١٢].

وكان العزيز منذ بدء الحصار على عكة قد أمر بمفاوضة اعيان دمشق واجتذابهم الى جانبه . فكتب ابراهيم اليهم وكتبوا هم اليه ووعدوه ولكنهم لم يبروا . وكان الشهابي الكبير يحذره منهم فلا يراهم جديرين بالثقة ولا يستثني احداً منهم سوى علي اغا خزينه كاتبي ورشيد اغا الشوملي[٢١٣]

والواقع ان اغاوات دمشق كانوا قبيل الزحف على عكة قد حرقوا احد ولاتهم محمد سليم باشا الصدر الاسبق . فأمسوا والحالة هذه ينتظرون عقاباً صارماً من الدولة وراحوا يلتمسون المساعدة من عبدالله باشا والي عكة راجين العفو وغض النظر . وما ان ظهرت طلائع الجيش المصري في اقصى فلسطين حتى تعهدوا لحكومة الآستانة «ببذل الروح في سبيل المدافعة عن حقوق السلطان في حال وقوع التعدي من قبل والي مصر»[٢١٤] . ورأوا من الحكمة ان يعرضوا خدماتهم على الجانب المصري ايضاً كي يمسكوا بالحبل من الطرفين. فقالوا اننا من اخلص عبيد افندينا ابراهيم باشا ولا شبهة في اننا معه قلباً وقالباً في الباطن رغم تصريحنا في الظاهر اننا سنقبل الوالي التركي الجديد . ولكننا نرى في ان لا يتحرك الجيش المصري الى طرفنا قبل الانتهاء من مصلحة عكة . لانه اذا اقدم افندينا الهمام الى طرفنا قبل فتح عكة وصادف ان قدمت الجيوش الجرارة من الآستانة فلا شك في ان دولة افندينا يرجع الى مصر ونصبح نحن بلا نصير فتصب السلطات التركية غضبها علينا باعتبار اننا اصبحنا مجرمين في نظرهم مرتين»[٢١٥] . ولكن احدهم على الاقل لا بل اكبرهم واوجههم محمد جوربجي اغا (الداراني) الذي اكد ولاءه للسلطات المصرية في بدء عمليات الحصار

(٢١٢) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٤ محرم سنة ١٢٤٨ (حزيران ١٨٣٢) : المحفوظات ج٢ ص٥

(٢١٣) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٦ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج١ ص ١٥٣ ومن هؤلاء المشار اليهم في الوثائق الملكية محمد جوربجي اغا ومحمد اغا كيلار امينى وشمدين اغا وحمود اغا حاجي بكرزاده ومصطفى اغا الاورفلي ومحمد اغا اجل يقين .

(٢١٤) علي نجيب افندي الى عبدالله باشا ١٥ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج١ ص ١٤٦

(٢١٥) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٦ رجب سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ايضاً ج ١ ص ١٥١-١٥٢

كتب في الآونة نفسها الى عبدالله باشا والي عكة يزوده بالاخبار ويؤكد مُقسماً بتربة الرسول الاعظم « انه باقٍ بالخدمة يخدم بماله واولاده وعياله وروحه الى ان يفرجها المولى». فضُبط كتابه هذا في يد نابلسي في مياه عكة وعُرض على ابراهيم باشا[٢١٦] . ومن هنا في الارجح اشمئزاز ابراهيم باشا من اعيان دمشق وقلة ثقته فيهم وقوله لوالده انهم لم يدخلوا في طاعته الا بعد ان توغلت قواته في بلدتهم[٢١٧] .

وفي التاسع من حزيران سنة ١٨٣٢ قام الفاتح المصري على راس قوة تألفت من تسعة الاف نظامي وثلاثة الاف فارس بدوي من عكه الى الرامة فبات فيها ثم انتقل منها الى جسر بنات يعقوب عبر الاردن فقرية القنيطرة فخان سعسع . وقام الشهابي الكبير ببضعة الاف لبناني الى وادي الحرير فوادي القرن فقرية داريا خارج دمشق ومعه ولده الامير خليل والاميران الارسلانيان أمين ومحمد[٢١٨] . فأصبح الجيش الزاحف والحالة هذه مقسماً هكذا: قلبه في بعلبك بقيادة عباس باشا وميسرته في طرابلس تحت امرة حسن بك المناستولي وميمنته في مداخل دمشق وعلى راسها القائد الفاتح وحليفه اللبناني الكبير[٢١٩] .

فقام علوش باشا والي دمشق يجري اتصالاته باعيان البلدة واغاواتها ويوجب مقاومة المصريين واللبنانيين « ولو ساعة واحدة » . ودعا محمد جورجي اغا بعض الاعيان اليه ونهى عن مخالفة الدولة وسلّح اتباعه ونبّه على الاهالي ان يتسلحوا ويستعدوا للكفاح فاحتار هؤلاء في أمرهم ولكنهم انصاعوا اليه في النهاية وخرجوا لقتال المصريين واللبنانيين[٢٢٠] .وما ان فعلوا وخرجوا الى داريا بفرسانهم الثمان مئة وبضعة الاف من المشاة حتى سلّط القائد المصري فرسانه العرب واورطة نظامية عليهم ففروا هاربين في ظرف ساعة من الزمن . وفي مساء تلك الليلة في الثالث عشر من حزيران سنة ١٨٣٢ فرّ علوش باشا والقاضي والمفتي والنقيب ومعظم اغاوات البلد الى حمص بطريق النبك ودير عطية . وقام في صباح اليوم

---

(٢١٦) يوحنا بحري الى الباشماون ٢٧ جمادى الاخرة سنة ١٢٤٧ (١٨٣١) : المحفوظات ج ١ ص ١٣٢ و ١٥٤-١٥٦

(٢١٧) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ٩ ربيع الاخر سنة ١٢٤٨ (ايلول سنة ١٨٣٢) : المحفوظات ج٢ ص ٩٥

(٢١٨) كادالنان وبارو ص ١٤٩-١٥٠ واخبار الاعيان لطنوس الشدياق ص ٥٧٤

(٢١٩) كادالنان وبارو ص ١٤٧

(٢٢٠) المعلم يوسف القرداحي الى يوحنا بحري فالباشماون ١٣ محرم سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢) : المحفوظات ج٢ ص ١٩

التالي احمد بك ابن الكنج يوسف باشا وكيل العزيز في دمشق قام الى داريا يخبر ابراهيم باشا بواقع الحال . فأوعز ابراهيم الى صديقه الشهابي الكبير ان يقوم الى الشام بجميع رجاله ففعل وتبعه ابراهيم على راس الالاي الغارديا فحيته القلعة بالمدافع وبات الجميع تلك الليلة في المرجة خارج دمشق وفي سراي الحكومة داخلها . وفي صباح اليوم التالي نودي بأحمد بك هذا المشار اليه متسلماً على دمشق وبتشكيل مجلس « للمشورة » مؤلف من عشرين عضواً منهم المسلم والنصراني واليهودي فخرج علي اغا عرمان محافظ القلعة ومثل بين يدي الباشا وسلّمه مفاتيح القلعة . وعند الظهر قام الباشا بشخصه وحده الى الجامع الاموي لحضور صلاة الجمعة . فاحتار العلماء والائمة باسم من يخطبون باسم السلطان او باسم العزيز . فأجابهم الباشا اني لا ازال عبداً للسلطان فاخطبوا باسم السلطان وادعوا للعزيز[٢٢١] .

وعرض القائد الفاتح جنوده وأجرى بعض المناورات العسكرية فخرجت دمشق بأسرها لحضور العرض . « وكان الوزير والامير بشير واقفين قدام الحلق » فتقدم بعض الاغاوات الذين فروا مع علوش باشا و « تراموا » على الامير اللبناني فتشفع بهم امام القائد وقُبلت شفاعته وعفي عنهم ـــ المفتي والنقيب ومحمد اغا كيلار امين ورشيد اغا الشوملي[٢٢٢] .ونفى القائد اولاد الزعماء الباقين الذين نكثوا بوعودهم وفروا مع الوالي وأبعد عن دمشق كل من خشي امره[٢٢٣] .

وترك هذا الفتح اليسير اثرًا بالغًا في نفس ابراهيم فانه كتب الى الديوان الخديوي يقول : « على المصريين الا ييأسوا من دخول الجنة فالجنة نفسها قد دخلت تحت حكمنا[٢٢٤] . وأعلن نبأ دخوله الى دمشق في مرسوم وجهه الى اعيان حلب واهاليها قال فيه : « ومن ثمّ اتينا الشام ذات الابتسام فلاقتنا بوجه عبوس وارادت محاربة عساكرنا الشوس فلم يكن اقل من ساعة حتى دخلوا جميعاً تحت نير الاطاعة فدخلناها بسلام بعد التسليم وتلا سيفنا على نار فتنة هذه الاقطار يا نار كوني بردًا وسلاماً على ابراهيم »[٢٢٥] . ولمس العزيز اثرًا لهذه

---

(٢٢١) مذكرات تاريخية بقلم معاصر حكومي نشرها الخوري قسطنطين الباشا ص ٤٨–٥٨ كذلك كادالفان وبارو ص ١٥٢–١٥٥

(٢٢٢) المرجع نفسه ص ٥٨–٥٩

(٢٢٣) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٢٦ محرم سنة ١٢٤٨ (حزيران ١٨٣٢) : المحفوظات ج٢ ص ٢٨ و ٣٢ و ٣٨

(٢٢٤) ٢١ محرم سنة ١٢٤٨ (حزيران ١٨٣٢) : المحفوظات ج٢ ص ٢٥

(٢٢٥) غير مؤرخ الاصول العربية ج٢ ص ١١–١٢

الانتصارات في نفس كل من قنصل النمسة وقنصل انكلترة اللذين اخذا يميلان اليه فينقلان اخبار عدوه اليه . لمس فابتهج[٢٢٦] .

٤ ــ موقعة حمص

وكان السردار الاكرم قائد القوات العثمانية لا يزال في قونية عندما تسلّم نبأ سقوط عكة . وكانت طلائع جيشه مرابطة في ادنه بقيادة محمد باشا . فنقل اليه هذا خبر عكة واقترح ان يقوم سيده الى ادنه حالًا وان يتقدم هو بالطلائع الى انطاكية . فوافق السردار وأمر القائد الفتى ان يقوم الى حماه بعد انطاكية ويتحصن فيها . وبدلًا من ان يلتحق هو به باقصر ما يمكن من الوقت فانه تباطأ حسب عادته وآثر البقاء في ادنه خمسة عشر يوماً قام بعدها الى الاسكندرونه . وكان قليل الدراية بالنظم الحربية الجديدة لا يعبأ بها فقلّت مؤونة جيشه وعلت اصوات الجنود في طلب القوت واشتد احتكاك الجنود غير النظاميين بالنظاميين فكانت فتنة اودت بحياة الدفتردار والقاضي واضطر السردار ان يُفتي بوفاتها قضاء وقدرًا من جراء الحميات ! ثم ألحّ القائد الفتى محمد باشا ان تقوم الطلائع الى حماه بسرعة وان ينهض سيده السردار بالجيش الى انطاكية ففعل . وقام الملازم الافرنسي تفنان معاون محمد باشا يدرس امكانيات الصمود في حماه فرأى انها طلقة جدًّا وان قلعتها بحالة من الاندثار شديدة بحيث لا يمكن ترميمها بوقت قصير فأشار على الباشا بوجوب التقدم الى حمص والارتكاز عليها نظرًا لحالة قلعتها ولكثرة جنائنها ومرور العاصي بها مما يعاون في الدفاع . فقام الباشا بالطلائع الى حمص ووصلها في السابع من تموز سنة ١٨٣٢ فاستقبله محمد باشا والي حلب استقبالًا فخماً واقام الولائم على شرفه وبات تلك الليلة مطمئنًا ظانًا ان الخصم لا يزال على بعد يومين عنه . وكانت امتعة الطلائع لا تزال في طريقها الى حمص فأمسى الجنود دون اي مأوى او طعام وحبوا الى اسواق حمص يطلبون ما ياكلون . ومما زاد في الطين بلة تفشي الهواء الاصفر بالمدن الشمالية باسرها من حلب وانطاكية حتى حمص ![٢٢٧]

وكانت ميمنة الجيش المصري قد تحركت بقيادة القائد الاعلى في الثاني من تموز فقامت من دمشق طالبة حمص عن طريق القطيفة والنبك وحسيا تؤازرها قوة لبنانية بقيادة بشير الثاني نفسه . وقامت في الوقت نفسه ميسرة الجيش بقيادة حسن المناستولي من طرابلس الى

(٢٢٦) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٢٩ محرم سنة ١٢٤٨ (تموز ١٨٣٢) : المحفوظات ج٢ ص ٢٣

(٢٢٧) كادالفان وبارو ص ١٥٩–١٧٣ راجع ايضاً اراء الجنرال ويغان في هذا كله ج٣ ص ٣٤–٣٨ ومعظمه ماخوذ من المصدر الاول .

حمص . واتجه عباس باشا بقلب الجيش من بعلبك نحو الهدف نفسه . فوصلت جميع هـذه القوات الى القصير بالقرب من حمص في السابع من تموز اليوم الذي وصل فيه محمد باشا بطلائع الجيش العثماني ونزلت بالقرب من العاصي عند تل النبي مند[٢٢٨] .

وفي اثناء الوليمة التي اقيمت على شرف محمد باشا ابتهاجاً بوصوله الى حمص جاءَ من يُخبِرُ ان القوات المصرية أمست في القصير قريبة جدًا من حمص فهبَّ من فوره يشاور قركان حربه وزملاءه الباشاوات ومنهم محمد باشا والي حلب . فقال بعضهم بوجوب التراجع للاتصال بمعظم الجيش الذي كان لا يزال مرابطاً في انطاكية . وآثر غيرهم الهجوم على العدو حالًا اذ ليس من الممكن ان يتغلب فلاحو مصر على اسيادهم العثمانيين . وكان محمد باشا فيما يظهر يود ان يستأثر بالنصر لنفسه دون مشاركة سيده السردار فأمر باجراء مـا يلزم لمجابهة الخصم ومقاتلته . وكان بامكانه ان يتخذ خطة دفاعية فيستتر في حمص وفي جنائنها ويوقف زحف عدوه الى ان يصل الجيش بمعظمه ولكنه لم يفعل . وفي صباح اليوم التالي خرج بقواته الى السهل الذي يقع الى جنوبي حمص ووزع قواته في صفوف ثلاثة فجعل في القلب عبر الطريق الذي يصل حمص بدمشق الايات من المشاة النظاميين اربعة تتكئ ميمنتهم عـلى العاصي والترعة المتفرعة عنه وميسرتهم في فضاء صحراوي . وأقام خلف هذا الصف الاول صفاً ثانياً مؤلفاً من الايين نظاميين والاي خيالة يدعم بها قلب الصف الاول وميمنته . ووضع في الصف الثالث بين العاصي وبين قرية خربة مجاورة تبعـد الفا وثمان مئة متر عن القلعة الى جنوبيها الشرقي وضع في هذا الصف قواته غير النظامية والاياً من الخيالة النظامية لحمـاية ميسرته . وجعل لكل اورطة من المشاة مدفعاً ولكل الاي من الخيالة مدفعين ونصب واحدًا وعشرين مدفعاً في مواقع معينة خلف ميمنة قواته[٢٢٩] .

وقام ابراهيم الفاتح في صباح الثـامن من تموز من القصير الى حمص فرتب قواته على الشكل التالي : في المقدمة الايات المشاة الثاني عشر والثالث عشر والثامن عشر يتبعها الاي الغارديا والايان آخران من المشاة الخامس والحادي عشر . اما الالاي الثامن فانه وضع في الاحتياط خلف قلب هذه القوة . واتخذت الاورط شكل قوس مزدوج مفتوح غير كامـل الانتشار . وجعل القائد ثلاث بطاريات من المدفعية في الصف الاول واربعاً مع اوبوسين في الخطين الاول والثاني ثم وضع ثلاثة الايات من الخيالة في ميمنة القوة وثلاثة غيرها في ميسرتها

(٢٢٨) الجواب على اقتراح الاحباب لمخائيل مشاقة – نسخة جامعة بيروت – ص ٢٤٠

(٢٢٩) كادالفان وبارو ص ١٨٠–١٨١ وينان ج٢ ص ٣٧ عبد الرحمن زكي بك ص ٤١٠–٤١١

وجعل قواته غير النظامية من البدو تحرس اطراف جانبي الاحتياط . وأقام اللبنانيين بقيادة اميرهم بشير الثاني في القلب يحرسون الذخائر والمهمات .

ولمس القائد المصري ضعفاً في ميسرة خصمه اذ وجدها خالية من الموانع الطبيعية فرأى انّ يقوم قلب جيشه بهجوم شديد على خصمه وان يقوم المشاة من ميسرته بهجوم خادع على ميمنة خصمه ثم يندفع هو بالمشاة والخيالة والمدفعية على ميسرة العدو فيلتف حولها ويقضي عليها . فتحركت الخيالة واجتازت القرية الخربة في ميسرة الاتراك ثم هجمت على الخيالة الترك فتراجع هؤلاء وتفرقوا واحتل المصريون الارض وراء القرية وبينها وبين حدائق حمص. وحاول الفرسان النظاميون من الاتراك صد الهجوم المصري ولكنهم لم يفلحوا فانهارت ميسرة الاتراك وتقهقرت . وانثنى قلب الاتراك من جراء النيران المحكمة . فأمر محمد باشا القائد العثماني بالهجوم على مدفعية ميمنة المصريين فقابلته مدفعية الغارديا بالنار واكرهته على التراجع. وأسدل الليل ستاره فامتطى محمد جواده قاصداً حمص وفعل مثله غيره من القواد واقتدى الضباط بالقادة ثم حلت الفوضى في صفوف الجند فالهزيمة فالذعر[٢٣٠].

وفي صباح اليوم التالي دخل الامير اللبناني برجاله الى حمص ليرتب امورها « فداست خيوله القتلى مسافة ميل في سهل بابا عمر » واستقر في السراي فطلب الى القاضي والمفتي ان يُعنيا بدفن القتلى . ثم ارسل الاسرى والجرحى الى عكة بحراسة قوة لبنانية يتقدمها الشيخ حسين تلحوق . وأطلق سراح ثمان مئة ارمني كانوا في خدمة الاتراك فتسلمهم مطران الروم. وقام كاتبه مخائيل مشاقه الى جسر المياس لضبط مخلفات الوزراء « فوجد الخيام بفرشها حتى ان الافندي كاتب الديوان ترك دواته الفضية واقلامه والورق على الارض والطبايخ كانت باقية محروقة على النار »[٢٣١].

٥ ــ بيلان وجدَّ القائد الفاتح في اثر عدوه منذ العاشر من تموز فبات ليلته الاولى في الرستن في منتصف الطريق بين حمص وحماه وجاءه من يخبره بان الباشاوات لم يدخلوا حماه بل تعدوها وتركوا وراءهم ستة من مدافعهم ثم تركوا خمسة غيرها والتجأوا الى قلعة المضيق . فقام من فوره الى حماه ووصل اليها بعد ساعتين ونصف الساعة . وكتب الى والده بانه وصل الى حمص وتقابل مع ثمانية من الباشاوات واربعة الايات من المشاة وثلاثة من الخيالة وخمسة عشر الفاً من العساكر غير النظاميين وحمل عليهم بالقول بان محمد علي هو

(٢٣٠) كادالفان وبارو ص ١٨٠–١٨٩ عبد الرحمن زكي بك ٤١١–٤١٥ مخائيل مشاقه ص ٢٤١
(٢٣١) الجواب على اقتراح الاحباب ص ٢٤٥–٢٤٦

الباشا وبان سرّه وسيفه ورمحه هو ابراهيم وانه ضربهم وشتت شملهم حتى قتل منهم الفي نفر وجرح الفين وانه أسر ما ينوف عن الثلاثة الاف من العساكر النظامية واستولى على عشرين مدفعاً وعلى ذخائر وخيام لا تعد وانه ارسل الجرحى والاسرى الى عكة فصار فتح حمص وحماه بعد انهزامهم . فماذا يريد المصريون منه ومن والده وهو قد فتح لهم الشام مثال الجنة وألحق بحكومة مصر حمص وحماه ايضاً وانــه سيستولي على الممالك بالسيف والمدافع والبنادق حتى اسكودار . ثم يدعو لوالده بطول العمر والبقاء وانه هو ومن معه يقدمون انفسهم في خدمته وخدمة الملة[٢٣٢]. فأنشد « لسان الحال » في الوقائع المصرية :

عزيز مصر ادام الله سطوتــه حاز الممالك من دانٍ ومن قاصي
هذى حماة وهذى حمص أرختا مجد حوى الشام واستولى على العاصي[٢٣٣]

وكان السردار الاكرم قد بلغ انطاكية وبارحها متجها نحو حمص فالتقى بفلول الجيش المهزوم وعرف منهم نبأ الهزيمة فارتد الى حلب ليتخذها قاعدة للقتال وطلب الى اعيانها ان يمدوه بالمؤونة والرجال فتشاوروا ورفضوا الاشتراك في الحرب وابوا على جيش السردار ان يدخل احد منه الى المدينة ولم يسمحوا بذلك الا للجرحى والمرضى واغلقوا ابواب البلد !

وفي خلال ذلك كان ابراهيم باشا قد تقدم من حمــاه الى المعرة سالكاً طريقاً معطشة منهكاً جنوده من شدة الحر وقلة الماء . ولدى وصوله الى قرية زيتا جاءه جماعة من العرب يخبرونه بما حلّ بالسردار في حلب وبقيامه منها فأسرع اليهــا بالفرسان وستة مدافع ووصلها في الخامس عشر من تموز واستقر في الشيخ بكر في ظاهرها . فخرج اليه وجهاؤها واعيانها يقدمون الطاعة[٢٣٤]. وكان ابراهيم قد كتب الى مفتي حلب يستعطفه منــذ دخوله الى دمشق وكتب ايضاً في الوقت نفسه الى مفتي مرعش الذي كان قطباً في حلب يخبره عن فتح عكة ودمشق وطرابلس ويقول له انه ذاهب الى حلب لانها من بلاد العرب الطاهرة ولانه يجب تخليصها من ادران الظلم والفساد ويوضح له خروج الدولة عن الدين والشرع . وقوّى ابراهيم هذا القول بالفعل فكان ما كان من موقف القاضي والمفتي وامتناعها عن تقديم المعونة للسردار كما أوضحنا[٢٣٥]. ولا يُستبعد ان يكون القائد المصري قد اتصل في الوقت

(٢٣٢) مترجم من اصل ضائع : تقويم النيل في عصر محمد علي باشا لامين سامي باشا ج٢ ص ٤٠٠
(٢٣٣) الوقائع المصرية : ٢٣ صفر سنة ١٢٤٨ العدد ٤٠٧
(٢٣٤) الوقائع المصرية عدد ٤١١ — ٣ ربيع الاول سنة ١٢٤٨
(٢٣٥) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ١٣ محرم سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢) : المحفوظات ج٢ ص ١٨

نفسه بزعما. الانكشارية في حلب للغاية نفسها او ان يكون الامير الشهابي قد فعل مثل ذلك نظرًا لعلاقاته الطيبة مع بعضهم . ومن هنا في الارجح تعيين ابراهيم اغا سياف زاده الانكشاري متسلماً على حلب حال استيلاء المصريين عليها[٢٣٦]. وكان العزيز منذ سقوط عكة وفتح دمشق قد ارسل الى بر الشام محو بك الكردي ليلتحق بابنه ابراهيم ويستميل اكراد الجزيرة وجنوبي الاناضول[٢٣٧]. ففعل فيما يظهر ونجح في مهمته وجاءت وفود اورفه وديار بكر الى حلب تعلن خضوع هاتين المدينتين وتوابعهما لحكم العزيز[٢٣٨].

ورأى « السردار الاكرم » ان يأوى الى مكان حصين يصمد فيه فانسحب الى مضيق بيلان عبر جبال الامانوس التي تفصل بين بر الشام وبين ادنه وتعلو في بعض قممها الفاً وثمان مئة متر . فشطر قواته شطرين ارسل احدهما عبر كليس والاخر عن طريق انطاكية. واتخذ مواقعه على قمم الجبال فاحتشد المشاة فوق هضبة على خط منكسر يصل طرفه الايمن الى طريق وعر يخترق الجبل آتياً من خان قرموط ذاهباً الى بيلان وطرفه الايسر الى الطريق الوسط الواصل الى بيلان نفسها . وكانت ميسرة هذا الجيش ترابط على امتداد هذا الخط فيما يلي هذا الطريق ، ويشد ازرها بعض المدافع المنصوبة على اكمة قريبة من الطريق . وأقام السردار امام صفوف المشاة استحكامات نصب فيها المدافع وامامها الفرسان .

وقام ابراهيم الفاتح من حلب في السادس والعشرين من تموز متابعاً خصمه فأرسل النظاميين من قواته عن طريق كلس وأمر غير النظاميين ان يتوجهوا الى بيلان عن طريق انطاكية . ولدى وصوله الي مضيق بيلان في التاسع والعشرين عسكر في السهل المنبسط تحت المضيق. ثم أنعم النظر في مواقع خصمه فألفاها منيعة يصعب على جيش مرابط في السهل ان ينال منها منالًا . فاجتمع الى قواده ومعاونيه وتداول واياهم الرأي فامتنع عن مهاجمة الترك مواجهة ورأى ان يدور حول ميسرتهم فيحتل بعض الهضاب التي تمكنه من التسلط على قلب الجيش التركي وجعل مشاته هدفاً لنيران مدافع مصر . ويرسل في الوقت نفسه بعض قواته للاحاطة بميمنة الجيش التركي .

فانفذ القائد المصري الاي الغارديا والالاي الثامن والثامن عشر من المشاة الى طريق كلس بيلان فساروا اليه واحتشدوا وراء اكمة ووراءهم الفرسان والمدافع ثم اخذوا يتحركون

(٢٣٦) الاصول العربية ج٢ ص ٢٢

(٢٣٧) ١٤ محرم سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢) : المحفوظات ج٢ ص ١٩

(٢٣٨) كادالفان وبارو ص ٢٠٢

شرقاً باتجاه ميسرة العدو . وقد تولى ابراهيم باشا بنفسه قيادة هذه الحركة لان عليها المعوّل. وكانت تكتنف هذه الحركة مصاعب جمة لان المصريين اضطروا ان يسيروا صعداً في طرق وعرة . وما ان لمح الترك تقدمهم حتى صوبوا مدافعهم واطلقوها عليهم . فأمر ابراهيم بنصب مدافعه وراء الاكمة التي احتشد فيها المشاة واطلقها على خصمه بين القلب والميسرة . واستمر المصريون في زحفهم شرقاً الى ان تخطوا ميسرة خصمهم فهاجموه من الامام ومن الجنب وزحزحوه عن مراكزه فاضطرب واضطر ان يرتد شمالاً وبدأت هزيمته . ووصل المصريون الى مرتفعات تشرف على مراكز العدو ونصبوا فيها المدافع وصبوا نيرانها على ميسرة الخصم المنسحبة فاشتد اضطرابها وحلّت بها خسائر جسيمة . وكان قد تقدم فريق من جنود الالاي الثامن عشر واقتربوا من فرسان الترك امام قلب الخصم وهاجموهم وقت احاطة جنود القارديا والالاي الثامن بالميسرة فسارعوا الى الارتداد مرتبكين مشتتين . ولما وصل المصريون بميمنتهم الى طريق بيلان تحرج مركز قلب العدو وأدرك ان خط الرجعة الى بيلان أصبح مقطوعاً فلم يثبت امام هجوم المصريين ولاذ بالفرار متشتتاً في الجبال . وكان قد انفذ القائد المصري الالاي الثالث عشر من المشاة بقيادة حسن بك المناستولي تصحبه بطارية من المدافع الى الطريق الذاهب من انطاكية الى بيلان واردفه بالالاي الخامس احتياطاً . فتقدم هؤلاء ووصلوا الى اكمة قريبة من اقصى ميمنة عدوهم فلم يصمد الترك هنا بعدما علموا بما اصاب الميسرة . فتخلوا عن مراكزهم وتقهقروا في الجبال . وبذلك انتهت واقعة بيلان بعد قتال دام ثلاث ساعات فقد فيه الترك الفين وخمس مئة قتيل وجريح والفين من الاسرى وخمسة وعشرين مدفعاً وكثيراً من الذخيرة[٢٣٩] . ولم يعترف المصريون باكثر من عشرين قتيلاً .

وفرّت فلول الترك الى الاسكندرونة لتتصل بالاسطول الهمايوني ولكنها لم تدركه. فسار المصريون في اعقابها واسروا الكثير منها واحتلوا الاسكندرونة وباياس وانطاكية واللاذقية. واختفى «السردار الاكرم» هائماً على وجهه متنكراً خوفاً من الفضيحة والقصاص . ولكنه لم يتورع عن شرب الشامبانية لدى القنصل مرتينلي في الاسكندرونة ومن جمع جواهره وارسالها على ظهر سفينة يونانية الى طرسوس[٢٤٠] .

---

(٢٣٩) كادالنان وبارو ص ٢٠٥-٢١٣ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي بك ج٣ ص ٢٥٢-٢٥٦

(٢٤٠) كادالنان وبارو ص ٢١٣-٢١٨

٦ ـ مؤخرة الجيش الفاتح واهتم القائد الفاتح لصيانة مؤخرة جيشه الزاحف فأبعد عن بر الشام جميع عناصر المخالفة . وسلّم الاحكام للشهابي الكبير امير لبنان واصدقائه واعوانه فجعل ابراهيم اغا سيّاف زاده متسلماً في حلب وبطال محمد اغا متسلماً في انطاكية ورشيد اغا الشوملي متسلماً في حماه ومصطفى اغا برير متسلماً على طرابلس واللاذقية . وألحق بيروت وصيدا وصور بلبنان فانتدب الشهابي الكبير الامير ملحم الشهابي لادارة بيروت والامير بشير قاسم لادارة صيدا والامير حسن الاسعد لتدبير امور صور . وابقى ابراهيم في عكة كاتب ديوانه محمد منيب افندي وأحاطه بمجلس خاص – مجلس اوردو عكة – مؤلف من الشيخ حسين عبد الهادي والشيخ احمد عبدالحليم والمعلم يوسف القرداحي والمعلم يوحنا بحري . ورأى القائد الفاتح ان يُسرع في اشراك اعيان دمشق في الحكم فأمر بتشكيل مجلس فيها منذ دخوله اليها وطلب الى الشهابي الكبير ان يعاونه في انتقاء الاعضاء. فأبقى هذا المعلم بطرس كرامه مدبر اموره في دمشق خصيصاً لهذه الغاية . وبعد شهر من الزمن صدر امر القائد بذلك فتشكل المجلس من وجهاء البلدة ليسمع جميع الدعاوى فيحول الشرعية منها الى قضاة الشرع ويفصل في السياسة باتفاق الاراء ثم يحول قراره النهائي الى المتسلّم لتنفيذه[٢٤١] .

وأبت صيدا ان تخضع لحكم الشهابي الكبير. وتزعم هذه المعارضة فيها القاضي الشيخ محمد يونس واخوه المفتي . وتظاهر اعوانها بذلك مشهرين السلاح . وشكوا أمرهم الى محمد منيب افندي في عكة . ورفع هذا شكواهم الى ابراهيم باشا فأمر هذا بقصاصهم وطلب الى الشهابي ان يلقي القبض على القاضي والمفتي وأعوانهما ويودعهم السجن ففعل . وأمر بقطع راس من شهر سلاحه في وجه المتسلّم اللبناني الامير بشير قاسم. فنفذ أمره على باب البلدة[٢٤٢] .

٧ ـ في الاناضول ولم تنثنِ عزيمة محمود الثاني امام الهزائم التي حلّت بجيوشه في حمص وبيلان . فأعدّ جيشاً جديدا وعهد بقيادته الى الصدر الاعظم محمد رشيد باشا رفيق ابراهيم باشا في حرب الموره . وعرض السلطان هذا الجيش الجديد بنفسه لينفخ فيه روح الشجاعة والاقدام ثم دفع به الى الاناضول . فاضطر العزيز ان يأمر ولده بمتابعة الزحف والقتال . واحتل ابراهيم اورفه وعينتاب ومرعش وقيصريه ثم اجتاز حدود

---

(٢٤١) الاصول العربية ج ٢ ص ١٨–١٩ و٢٩–٣٠ ونقوم النيل لامين سامي باشا ج ٢ ص ٤٠١ والمحفوظات الملكية المصرية ج ٢ص٣٥ وحروب ابراهيم باشا للقس انطون الحلبي ج١ ص٢٤

(٢٤٢) حروب ابراهيم باشا للقس انطون الحلبي ج ١ ص ٢٧–٢٨

بر الشام الشمالية ودخل ادنه وأقام فيها مدة يرتب اموره ويستعد للزحف على الاناضول. ثم نهض بجيشه فاقصى الاتراك عن كولك بو غاز وجفت خان واولو قشلاق واركلى فانفتحت طريق قونيه امامه ومضى في زحفه حتى بلغها فاحتلّها بدون نزاع وجعلها قاعدة امامية لمتابعة اعمال الفتح .

وفي الثامن عشر من شهر كانون الاول سنة ١٨٣٢ وصلت طلائع الجيش العثماني الجديد الى شمالي قونية . فناوشها ابراهيم باشا واستدرجها للقتال ولكن قائدها رؤوف باشا تجنب الدخول في معركة محددة . وفي العشرين من الشهر نفسه وصل الجيش باكمله بقيادة الصدر الاعظم . وفي اليوم التالي وقعت الواقعة واشتد وطيسها وكان الضباب كثيفاً ورأى الصدر ان يلم ثلث ميسرته ويبث الحمية في نفوس رجالها فنزل الى حيث مواقع الجند ولكنه ضلّ الطريق لتكاثف الضباب فوقع في ايدي المصريين اسيرًا وكان قد مضى على نشوب القتال نحو الساعتين . وانتهت المعركة بهزيمة الترك وتقهقرهم وانفتحت طريق الآستانة فتقدم القائد الفاتح دون معارضة حتى كوتاهية . وأحبّ ان يتقدم منها الى بروسه ليخلع السلطان ويملي ارادة العزيز على اخصامه وألحّ في ذلك ولكن والده آثر التريث لتحرج الموقف من الناحية الدولية[٢٤٣] .

---

(٢٤٣) اطلب النص الكامل لرسالتين من ابراهيم الى والده في هذا الموضوع في كتابنا اسباب الحملة المصرية ص ٥٢–٦٢

الفصل الخامس

كوتاهية وهنكار اسكله سى

١٨٣٣

١ ــ السلطان يطلب المعونة وخشي السلطان سوء العاقبة بعد قونية لا بل ارتعدت فرائصه . فعرض على الحكومة البريطانية عقد تحالف ثم ارسل سفيره في فيينة الى لندن يفاوض في ارسال مدد بحري يقوم هو بنفقاته[٢٤٤] . وبات ينتظر الجواب. وأراد العزيز ان يستغل نصره في قونية فكتب الى ناظر الطوبخانه خليل رفعت باشا يدعوه اليه للبحث في الصلح وتضميد الجروح[٢٤٥] . ثم ورد جواب الحكومة البريطانية على اقتراح السلطان بالرفض نظرًا لانشغال قواتها في مياه هولندة والبرتغال[٢٤٦] .
فلم يبقَ لدى السلطان عندئذ سوى الموافقة على اقتراح العزيز لما في ذلك من كسب للوقت. فأوفد خليل رفعت باشا ناظر الطوبخانه ومستشار السلطان الخاص ومصطفى رشيد بك آمدى الديوان الهمايوني وسلّحها بفرمان سلطاني يتضمن العفو عما مضى والحاق ايالة صيدا وتوابعها بحكومة العزيز[٢٤٧] . ولدى وصولها الى الاسكندرية في الحادي والعشرين من كانون الثاني سنة ١٨٣٣ واطلاع العزيز على مضمون الفرمان السلطاني هبّ العزيز يدعو بحفظ الذات الشاهانية ويؤكد وجوب التوقف عن الزحف بعد قونية[٢٤٨] . ثم أخذ يداعب الوفد ويفاوضه للوصول الى حل يرضي الطرفين. وما ان علم ابنه ابراهيم بقيام هذا الوفد المفاوض من

(٢٤٤) بريطانية والقرم للدكتور هارولد تمبرلي ص ٦٣

(٢٤٥) احمد خلوصي باشا الى محمد رشيد باشا ١٥ شعبان سنة ١٢٤٨ (٩ كانون الثاني سنة ١٨٣٣) : المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٢٢٠

(٢٤٦) المحفوظات البريطانية – الخارجية – ٧٨ ج ٢٢١ تاريخ ٨ كانون الثاني ١٨٣٣

(٢٤٧) البارون فارني الى وزير الخارجية : الحرب الشامية لجورج دوان ج ٢ ص ٤–٥

(٢٤٨) محمد علي باشا الى الصدر الاعظم والى السرعسكر في الآستانة ١٢ رمضان سنة ١٢٤٨ (٣ شباط ١٨٣٣) : المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٢٤٤

الآستانة ووصوله الى مصر حتى كتب الى والده يوجب المطالبة بالاستقلال التام وبضم بر الشام وادنة وقبرص والعراق الى مصر مؤكدًا له بامكانه ان يملي هذه المطالب املاء وان يجابه الدول بالامر الواقع قبل ان يتسنى لها التدخل الفعلي . ورأى ايضاً ان المصلحة تقضي بخلع السلطان وباجلاس ولي العهد مكانه صوناً للحقوق المكتسبة(٢٤٩) .

٢ ـ التدخل الروسي

وكان القيصر الروسي نيقولاوس الاول (١٨٢٥—١٨٥٥) منذ نهاية الحرب الروسية التركية وتوقيع معاهدة أدرنه قد طلب الى سبعة من اكبر اخصائه ان يدرسوا القضية التركية مجددًا ويتقدموا باقتراحات تنير سبيله وتمكنه من اتخاذ خطة رشيدة في معالجة هذه القضية . فرأى داشكوف احد كبار هؤلاء ان طرد الاتراك من اوروبة قد يؤدي الى انفعال كبير في نفوسهم فيزيدهم نشاطاً وقوة ويزدادون ازعاجاً في منطقة القوقاس . ثم اضاف ان اقتسام الاراضي التركيـة في اوروبة يجر النفوذ النمساوي الى البوسنة والجبل الاسود وألبانية ويجذب البريطانيين الى جزر ايجه والفرنساويين الى مصر فيستبدل جارًا ضعيفاً بجيران اقوياء . وقال زميله نسلرود ايها انفع لنا زوال الحكومة العثمانية ام بقاؤها ؟ لا مراء في ان اعادة العبادة الارثوذكسية الحسنـة الى الكنائس التي اصبحت جوامع في الآستانة تزيد في شرفنا وتخلد ذكرنا في التاريخ ولكنها تؤدي في الوقت نفسه الى عراك مع دول اوروبة العظمى . فقرّ قرار اللجنة على استبقـاء الدولة العثمانية والمحافظة عليها حرة طلقة خالية من اي نفوذ اجنبي(٢٥٠) .

وهكذا فاننا نرى القيصر في ربيع السنة ١٨٣٢ يهتم اهتماماً فائقاً لنداء الحكومة العثمانية ورجائها بان تحافظ الدول على الحياد في حربها مع والي مصر وان تمتنع عن ارسال المؤن والعتاد له نقول نرى القيصر يهتم لهذا النداء. فيأمر بالعمل بموجبه ثم يُقفل قنصليته بالاسكندرية ويُحيل اعمالها الى قنصل توسكانة(٢٥١) ويوفد بعد انهزام الجيش العثماني في حمص وبيلان مندوباً خاصاً الى الآستانة الجنرال مورافيف ليعرض على الباب العالي معونة فعلية توقف ابراهيم باشا وتفرض على العزيز طاعة سيده فرضاً .

وصل الجنرال مورافيف الى الآستانة في الثاني والعشرين من كانون الاول . وفي الثالث

---

(٢٤٩) راجع كتابنا اسباب الحملة المصرية ص ٥٣—٦٣

(٢٥٠) بريطانية والقرم للدكتور هارولد تمبرلي ص ٥٧ و ٦٩

(٢٥١) بوتانييف الى لافيزون ٣٠ تموز سنة ١٨٣٢ : المحفوظات الروسية في مصر لرينه قطاوي بك ج ١ ص ٥٢٥

والعشرين منه قابل وزير الخارجية (ريس افندي) وعرض باسم القيصر معونة برية وبحرية . ثم اعلمه انه في طريقه الى الاسكندرية ينقل الى واليها رغبة سيده في وقف القتال . وبعد ان اوفد الكولونيل دى هامل الى ابراهيم باشا لاعلامه بذلك قام هو الى الاسكندرية في الرابع من كانون الثاني سنة ١٨٣٣فوصلها في العشرين منه وقابل العزيز في اليوم التالي فأبلغه امنية القيصر ورغبته في الوصول الى سلم اكيد وقال ان جلالته يعتمد في ذلك على نبل العزيز وانه يأمل ان يعمل العزيز ما في وسعه للوصول الى هذه الغاية . وكان العزيز قد توقع بناء على معلومات سابقة لهجةً عسكريةً قوية فتأثر من لطف الجنرال الروسي وتأدبه وقبل طلب القيصر وأمر بالكتابة الى ابنه فوراً بحضور المندوب نفسه بان يقف عند قونية[٢٥٢] .

وكان العزيز يخشى نفوذ الدول ويتهيب تدخلها فتابع اتصالاته بالوفد التركي وافهم خليل رفعت باشا بانه لن يرضى بايالة صيدا وحدها وطلب الحاق ايالات بر الشام جميعها بحكمه ومعها « محصلية » ادنة لوفرة اخشابها وشدة احتياجه لهذه الاخشاب . وقام مصطفى رشيد بك الى الآستانة يسعى لهذه الغاية[٢٥٣] . وسرت اشاعة في الدوائر المقربة ان خليل رفعت باشا نجح في تقريب وجهتي النظر وفي انشاء تفاهم شخصي بين العزيز وبين خصمه محمد خسرو باشا في ان يقتسما النفوذ في الدولة كل في منطقته فيسعيان معاً لسعادة الكل[٢٥٤] . ورأى العزيز الا يطيعه ابنه في التوقف عن الزحف الى ان ينال ما طلب[٢٥٥] . فتقدم ابراهيم بجيشه الى كوتاهية وهدد بالزحف على بروسه مما اضطر احمد فوزي باشا مشير الخاصة ان يكتب اليه بان يمتنع عن الزحف على بروسه والا يقترب من الآستانة حقناً لدماء المسلمين[٢٥٦] . وطفح الكأس ورجحت كفة الموالين لروسية بين رجال البطانة وطلب السلطان المعونة المعروضة فرست في العشرين من شهر شباط من السنة نفسها امام ترابيه حيث دار السفارة البريطانية قوة بحرية روسية صغيرة ونزل الى البر الآسيوي المقابل خمسة عشر الف جندي روسي[٢٥٧] .

---

(٢٥٢) ميمو الى وزير الخارجية ٢٦ كانون الثاني ١٨٣٣ : الحرب الشامية الاولى لجورج دوان ج ٢ ص ٣٧ اطلب كذلك المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٢٣١

(٢٥٣) ميمو الى وزير الخارجية ٤ شباط ١٨٣٣ : المؤلف نفسه ج ٢ ص ٧٠ راجع ايضاً بلاغ سامي بك الى الديوان الخديوي : تقويم النيل لامين سامي باشا ج ٢ ص ٤١١

(٢٥٤) رسالة ميمو نفسها المشار اليها آنفاً .

(٢٥٥) محمد علي باشا الى ابراهيم باشا ٩ رمضان ١٢٤٨ : المحفوظات المصرية ج ٢ ص ٢٤٥

(٢٥٦) ١٣ رمضان ١٢٤٨ (٤ شباط ١٨٣٣) : المحفوظات المصرية ج ٢ ص ٢٤٥

(٢٥٧) روسان الى وزير الخارجية ٢٤ شباط ١٨٣٣ : دوان المؤلف نفسه ج ٢ ص ٩٩-١٠٠

٣ – موقف الدول

وكانت الدول لا تزال ترقب الاحوال عن بعد . ولكن لما كسب العزيز الواقعة واشتد هرع السلطان بدأت هذه الدول تتململ حتى اذا ما ظهرت روسية في الميدان بمفردهــا اوجست الدول خيفة وبدأ ساستها يتكلمون . ووافق ظهور الاسطول الروسي في ميــاه البوسفور وصول سفير فرنسة الجديد الاميرال روسان . وكان هذا مستقل الرأي صريحاً معجباً بنفسه قليل الخبرة في السياسة . فثار ثائره لظهور هذا الاسطول وتسرّع في عمله فبدأ بان تعهد لدى الحكومة العثمانية بان يقبل محمد علي شروط الصلح التي نقلها اليه خليل رفعت باشا وفي مقابل هذا يتعهد الباب العالي برفض المساعدات الاجنبية[٢٥٨] . واتبع هذا بشرع آخر ذلــك انه كتب الى العزيز كتاباً جافاً قال فيه : « ان اصرارك وادعاءاتك ستجر على راسك عواقب وخيمة ارجو ان يردعك الخوف عنها . وان فرنسة ستتمسك بالتعهدات التي ابرمتها وان لهــا القوة وانا ضمين صدق ارادتها . واني ارجو الا تضطرنا لاستعمال القوة ضد مملكة نحن من مشيديها . فقام قنصل فرنسة في الاسكندرية المسيو ميمو والبارون ده بو الكونت يخففان من وطأة هذا ثم كتب العزيز يرفض رفضاً جميلاً : « اسمح لي يا سيدي ان اسألك باي حق تطلب مني تضحية نفسي. ان الشعب معي . وما علي الا ان ارفع اصبعي فاثير الثورات في الروملي والاناضول . وما دام الشعب معى ففي مقدوري ان اعمل كل شيء . وان دعوتك لي بان اتخلى عن الاقاليم التي احتلها هي بمثابة حكم بالاعدام غير اني واثق ان فرنسة وانكلترة لا تبخلان بالانصاف»[٢٥٩] . فعــاد الاميرال الى رشده يطلب المستطاع الذي يمكن تحقيقه فبدأ ينصح الى الباب العالي باجابة طلب العزيز .

وكان الكونت بالمرستون كما اشرنا سابقاً قد تردد في اعماق نفسه فيما اذا كان قيام دولة فتية في مصر والشام اقرب لمصالح بريطانية من الاستبقاء على الدولة العثمانية بكاملها ام لا فالتزم حياداً كان اقرب لمصالح العزيز منه لمصلحة السلطان . ولكن انهيــار الدفاع العثماني وتقدم العزيز الى كوتاهية وتدخل روسية ذاك التدخل الفعلي نزع عن قضيــة العزيز صبغتها المحلية وجعل منها قضية دولية لا بد من معالجتها كي لا يتفاقم شرهــا . وهكذا فاننا نرى الوزير البريطاني يعين في كانون الثاني من السنة ١٨٣٣ الكولونيل كامبل قنصلاً عاماً ومعتمداً سياسياً لدى حكومة العزيز ويطلب اليه ان يؤكد للعزيز ان حكومة جلالته

---

(٢٥٨) تاريخ مصر السياسي لمحمد رفعت بك ص ١٩٢

(٢٥٩) المرجع نفسه ص ١٩٢–١٩٤

البريطانية لا ترضى عن تجزئة الدولة العثمانية . ولكن المستر كامبل لم يصل الى مصر قبل السادس والعشرين من اذار[٢٦٠] . وفي السابع من اذار كتب الوزير البريطاني يعتذر عن تقديم المعونة لحكومة الآستانة ولكنه وعد بالاسعاف السياسي فتعاون مع الحكومة الفرنسية تعاوناً جدياً وأرسل في نيسان ينذر العزيز بحصار بحري . ثم رأى ان الضرورة تقضي باللجوء الى القوة فأمر السر تشارلس هوثام ان يقوم بوحدات بحرية الى الدردنيل ففعل في شهر ايار فجاء عمله متأخراً[٢٦١] .

ولم يكن للبرنس مترنيخ سوى سياسة واحدة في الشرق وفي الغرب معاً وهي سياسة المحافظة على التقاليد الموروثة واخماد الحركات القومية واحترام الحقوق الشرعية . ولذا فاننا نراه ينتدب الكولونيل بروكش فون اوستن لتمثيل حكومته في مصر . وكان هذا قد جاب مصر طولاً وعرضاً في السنة ١٨٢٦ فأعجب بعقلية العزيز وتفوقه على اقرانه . ونشر مذكرات عن وادي النيل في مجلدات ثلاثة . ووصل مصر في اوائل نيسان ونقل الى سيدها موقف حكومته من المشكلة القائمة بين السلطان وبين العزيز فبيّن للعزيز حاجة الموقف الدولي ورجاه ان ينهي المشكلة في اقرب وقت ممكن[٢٦٢] .

٤ ــ اتفاقه كوتاهيه وأدى التهديد بالزحف على الآستانة وخطر نشوب ثورة في الاناضول وانقطاع قسم وافر من القوت عن الآستانة من جراء وقوع الاناضول في يد العزيز وامتعاض الراي العام الاسلامي من التعاون مع روسية عدوة الدولة القديمة وضغط الدول الغربية على كل من السلطان والعزيز تقول أدى هذا كله الى قيام مصطفى رشيد بك آمدي الديوان الهمايوني في الثلاثين من اذار الى المعسكر المصري حاملاً بيده خطاً شريفاً بتوجيه جميع الايالات الشامية الى عهدة العزيز . ورافق الآمدي في هذه الرحلة القائم باعمال السفارة الافرنسية البارون دي فارين . وكان القائد المصري قد أصدر اوامره للزحف على الآستانة فأوقف قواته وبات ينتظر تعليمات جديدة من والده ولكنه لم يتردد في المطالبة بادنة وملحقاتها فوافق الآمدي على ذلك وشرع ابراهيم يستعد للتراجع عن بروسة . ولكن ادعاء الباب العالي بان المفاوض التركي تخطى حدود صلاحياته وصدور التوجيهات الجديدة

(٢٦٠) عن المحفوظات البريطانية — وزارة الخارجية — ٧٨ سجل ٢٢٦ نقلاً عن الامبراطورية المصرية للدكتور محمد صبري ص ٢٢٩

(٢٦١) اطلب كتاب الدكتور هارولد غبرلي المشار اليه آنفاً ص ٦٣-٦٦

(٢٦٢) ميمو الى وزير الخارجية ٦ نيسان سنة ١٨٣٣ : الحرب الشامية الاولى لجورج دوان ج ١ ص ٢٢٩-٢٣٣

خالية من اية اشارة الى الحاق ادنه بالحكم المصري اعادا التأزم الى حاله الاول . فقام ممثلو الدول الغربية يعيدون الكرة في الضغط على السلطان. ووافق هذا كله وصول السفير البريطاني الجديد اللورد بونسونبي الى الآستانة الذي تبنى موقف زملائه . وهب العزيز في الوقت نفسه يخاطب الآستانة بشدة قائلاً « سبحان الله كلما ازددت رغبة في تقديم الخدمات للدولة اعترضتني شوائب عدم الامان وهكذا فانهم يعملون على اخراجي من دائرة الادب»[٢٦٣] .

فوافق السلطان على الحاق ادنه بحكم العزيز وكتب احمد فوزي باشا الى ابراهيم باشا يفيده ان حكومة ادنه اسندت الى عهدته وان امين افندي ناظر المهمات الحربية اوفد خصيصاً اليه لينقل مضمون بعض الارادات الشاهانية شفاهاً[٢٦٤] . وبعد ذلك بخمسة ايام اي في الحادي عشر من ايار سنة ١٨٣٣ ورد الى ابراهيم في كوتاهية فرمان سلطاني بتعيينه «محصلا» على ادنه وكتابان من الصدر الاعظم رؤوف باشا ومن السرعسكر محمد خسرو باشا بانتهاء المشكلة[٢٦٥] وبوجوب بدء الجلاء . والجدير الذكر بهذه المناسبة ان ما يسميه المؤرخون اتفاق كوتاهيــة يختلف عن سائر الاتفاقات من نوعه فهو شفهي ينقصه نص معين وتوقيع طرفين متعاقدين . وجل ما هنالك من الوثائق الخطية هو فرمان سلطاني بتعيين محمد علي باشا والياً على مصر وتوابعها وايالات بر الشام وجزيرة كريد وفرمان آخر بتعيين ابراهيم باشا محصلاً على ادنه وكتابان من الصدر الاعظم ومن السر عسكر يشعران بانتهاء المشكلة .

٥ ـ هنكار اسكله سي

وما كاد الصلح يتم بين السلطان وبين العزيز حتى وصل الى الآستانة سفير روسي فوق العادة هو الكونت أليكسيس أورلوف صديق القيصر الخاص واخلص المخلصين له . وكان ذا هيبة ووقار لطيفاً اديباً انيقاً ماهرًا في فن الاقناع قريباً من القلب يجمع في شخصه جميع مؤهلات النجاح في التمثيل الدولي . وكان السلطان لا يزال ممتعضاً من بريطانية وابنائها لقلة اكتراثهم به وامتناعهم عن اسداء المعونة له وفي الوقت نفسه كان يعتبر فرنسة والافرنسيين اصدقاء أصفياء لخصمه وجالب مذلته فبالغ في العطف على ممثل القيصر وخرج عن التقاليد في استقباله فخطى خطوتين الى الامام لمصافحته وسمح له بالجلوس في حضرته وقدّم له ولديه وشيّعه حتى باب الردهة لدى

---

(٢٦٣) محمد علي باشا الى خليل رفعت باشا ٧ ذي الحجة ١٢٤٨ (٢٨ نيسان ١٨٣٢) : المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٣٠٨

(٢٦٤) ١٥ ذي الحجة ١٢٤٨ (٦ ايار ١٨٣٣) : المحفوظات نفسها ج ٢ ص ٣١٣

(٢٦٥) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ٢٠ ذي الحجة ١٢٤٨ : المحفوظات نفسها ج ٢ ص ٣١٢

خروجه . وأعطى السفير بسخاء في اثناء وجوده بالآستانة فقدم الهدايا الثمينة لرجال البطانة ووزع الاوسمة العديدة على رجال الجيش ويقال ان عددها بلغ اربعة وعشرين الفاً ونوّه بالتآخي القلبي بين جنود القيصر ومجارته وبين عساكر السلطان وأعلن ان مهمته تنحصر في الاشراف على جلاء المصريين وفي سحب الجنود الروس حالما يقطع المصريون في جبال طوروس .

وكان السلطان قد طلب الى اخيه القيصر عقد تحالف دفاعي يكون في صالح الطرفين فلبى القيصر الطلب وأوعز الى أليكسيس ان يُنجز هذا العمل . وبعد مفاوضات طويلة تمّ هذا التحالف في بيت محمد خسرو باشا ووقّعه في هنكار اسكله سى في الثامن من تموز اليكسيس اورلوف وبوتانييف عن الجانب الروسي ومحمد خسرو باشا واحمد فوزي باشا والريس افندي عن الجانب العثماني . وقضت شروط هذه المعاهدة بسلم وتحالف دائمين بين روسية وتركية وبدفاع مشترك عن حدود البلدين ضد اي هجوم من الخارج واحترام ما يتعلق باليونان من معاهدة ادرنة وباستعداد روسية لتأييد استقلال تركية واسداء المعونة البرية والبحرية لها اذا هي طلبت ذلك مرة ثانية وبدوام هذه المعاهدة ثمان سنوات . وأهم ما جاء فيها شرط سرّي قضى باقفال « الدردنيل » في وجه جميع السفن الحربية الاجنبية وعدم السماح لها بالدخول مهما كان عذرها وذلك في مقابل تنازل روسية عن المعونة الحربية المتوجبة على تركية. وليست هنالك اية اشارة الى اقفال البوسفور . وبعد توقيع هذه المعاهدة بيومين بدأت القوات الروسية تنسحب من العاصمة التركية .

ورأى الريس افندي (وزير الخارجية) ان يُعلم السفارة البريطانية بمحتويات المعاهدة بصورة غير رسمية . فثار ثائر بالمرستون واتصل بزميله الافرنسي فاحتجا على هذه المعاهدة في بطرسبرج والآستانة وذكرا في احتجاجها الى الكونت نسلرود كبير وزراء روسية ان المعاهدة غيرت في علاقات روسية بتركية فصبغتها « بصبغة جديدة » لا يسع بريطانية وفرنسة ازاءها الا ان تضربا صفحاً عنها وتعملا كما لو كانت هذه المعاهدة غير موجودة . فاجابها نسلرود بان المعاهدة دفاعية محضة وانه لا يقصد منها الا الدفاع عن كيان الدولة العثمانية . ثم تناول تبدل العلاقات بين الطرفين المتعاقدين فقال ان المعاهدة استبدلت علاقات مبنية على العداء والريبة بغيرها ملؤها الاخلاص والمودة وأضاف بان القيصر مستمسك بتعهداته الجديدة وسيعمل بموجبها كما لو لم تعلن الحكومتان تصريحاتها الاخيرة .

وأباح نيقولاوس الاول بما في قلبه الى البرنس مترنيخ فوافقه على اتجاهه الجديد في سياسته نحو تركية ولكنه رأى ان ظاهر المعاهدة فاق نفعها الحقيقي وبات ينتظر فرصة تمكنه من

فسخ هذه المعاهدة بغيرها فتم له ذلك عند اجتماعه بالقيصر في مونشنغراتز (١٨٣٣) حيث عقد الاثنان اتفاقاً سرياً لحفظ كيان الدولة العثمانية وتعهدا بمنع العزيز من مدّ نفوذه الى الولايات الاوروبية وانه اذا حصل انقلاب في نظام الحكم في الآستانة فالدولتان المتعاقدتان تتفقان على كل ظاهرة من ظواهر النظام الجديد . وظل القيصر مستمسكاً بهذا الاتفاق حتى انثلم الاتفاق الودي بين بريطانية وفرنسة سنة ١٨٤٠ فانضم نيقولاوس الى جانب بالمرستون[٢٦٦] .

(٢٦٦) ليس افضل في هذا كله من كتاب الدكتور هارولد تمبرلي المشار اليه آنفاً فليراجع في صفحاته ٦٦-٧٤ فهو اكمل واحدث وادق من سواه . وقد اقتبسنا كلام صديقنا محمد رفعت بك في بعض الاحيان كما ورد في كتابه تاريخ مصر السياسي ولا سيما ص ١٩٨-١٩٩

الفصل السادس

نظام الحكم في عهد العزيز

١٨٣٢ - ١٨٤١

١ ــ أركانه وكان العزيز يعترف بتاخر « الملة المحمدية » بتعبير ذلك العصر وبضعف الدولة العثمانية وعجزهـا وبوجوب الصمود لطمع اوروبة وجشعها والتذرع بجميع الوسائل للوصول الى هذا الهدف النبيل . وكان يرى من واجبه ان يؤمّن العباد ويعدل بينهم ويوحّد قلوبهم ويزيد في انتاجهم كي يتسنى له الذود عن الملة والوطن . ولم يرَ في الوقت نفسه ما يمنعه عن الاخذ بجميع ما توصلت اليه اوروبة من اسباب الرقي للقيام بمهمته. فاستقدم من اوروبة رهطاً كبيرًا من رجال الاختصاص في الحرب والسلم ووكل اليهم أمر الاصلاح المنشود . وأرسل الوفد تلو الوفـد من ابناء البلد الى اوروبة لتحصيل العلوم والفنون كي يتمكن في النهاية من الاستغناء عن الاوروبيين الغرباء [٢٦٧] .

حمل ابراهيم رسالة والده هذه فبدأ بتأمين الامن وجدّ بادئ ذي بدء في اقصاء اعداء العهد الجديد وأحلّ محلهم من وجد فيه الكفاءة والاخلاص وأوصى بوجوب « تأمين العبـاد وزجر المعتدين وتحاشي اسباب الجور والاعتساف » [٢٦٨] ووضع تحت تصرف هؤلاء عددًا كافياً من الجند لتنفيذ الاحكام واحقاق الحق. ثم أمر عددًا من كبار معاونيه بالتجول في البلاد وتفقد احوال السكان . وكان والده يُلح عليه بهذا فكتب اليه يقول « ان التجول في الولايات الجديدة وتفقد شؤون الرعايا افضل من اصلاح الطرق ومجاري الانهار في ادنه وطرسوس» [٢٦٩] . ومنع ابراهيم جباية « الخوة » في معابر البلاد ومسالكها. وكانت السلطات

(٢٦٧) راجع مقالنا ادارة الشام في كتاب ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ص ١٠٧ - ١٠٨

(٢٦٨) كتابنا الاصول العربية ج ١ ص ٧٦

(٢٦٩) مقالنا المشار اليه ص ١٠٩

العثمانية قد غضت النظر عن جبايتها اجيالًا طوالًا فانحطت كرامتها وقلّ نفوذها وأصبح جباة هذه الخوة اسيادًا في مناطقهم منهم آل ابي غوش في الطريق المؤدي من يافه الى القدس وآل رستم في الطريق المؤدي من اللاذقية الى حلب عبر جسر شغور والدنادشة في تل كلخ بين طرابلس وحمص. ومما قاله في هذا نص مرسوم وجهه الى قاضي القدس ومفتيها ونقيبها واعيانها وجاء فيه : « انه ليس خافيكم ان القدس الشريف محتوي على معابد واديرة ترد لاجل زيارتها جميع املال العيسوية والموسوية وفرقهم من كل فجّ ويقصدونهـا من ساير الاقطار والديار فبحسب تواردهم كان يحصل عليهم المشقات الباهظة لسبب الاغفار الموضوعة بالطرقات ولاجل اجراء الوفق بين الناس صدرت اوامرنا الى جميع المتسلمين الذين في ايالة صيدا وألوية القدس ونابلس وجنين برفع هذه الاغفار من جميع الطرقات والمنـازل بوجه العموم»[٢٧٠] .

ورأى العزيز ان لا بد من جمع السلاح وتجريد السكان منه لتوطيد الامن في البلاد فأمر بذلك وشرع عماله بالتنفيذ . وما ان بدأ هذا حتى ثارت القبائل والعشائر وقد رأوا ترك ازواجهم خيرًا لهم واجل واشرف من ترك بنادقهم . فكان لا بد من تجريدهم بالقوة كما سنرى في محله .

اما عن العدل فحدث عنه ولا حرج فالشام لم تنل من العدل في اي عهد مضى منذ ايام عمر بن الخطاب ما نالته في ظل العزيز . فقد قال هذا الرجل الكبير في رسالة له وجهها الى احد رجاله ناظر الجهادية : « كنت اود ان نكون قد تخلصنا من الشموذة والغفلة والرخاوة والغرض والضغينة والمحاباة التي طالما ألفناها ومللناها في الايام الخالية وان يكون ذلك العهد قد مضى وانقضى وبدلنا به عهدًا يقوم على اساس الانصاف والانسانية والكياسة والعدالة والاجتهاد والغيرة بحيث يتسنى لنا نحن ايضاً ان نصرف عملنا وننجز مصلحتنا على اسلوب من اللطف والحسنى يدخلنا في مصاف البشرية الراقية»[٢٧١] . هذا هو العزيز وهذا هو رائده في الحكم . فاذا ما ذكرنا حزمه ونشاطه ومثابرته ومتابعته لما يصدر عنه أدركنا قيمة هذا القول واثره في توجيه القضاة ورجال الادارة والجيش .

وفهم العزيز عقلية شعبه فهماً تاماً فأمر بشدة العقاب وسرعة التنفيذ جاعلًا من احكامه وتنفيذها عبرة لمن يعتبر . ومثال ذلك انه عندما تشاكى كبار الموظفين انتشار الرشوة في دوائرهم في بر الشام أمر العزيز بالتثبت مما يقال وسمح بالشنق عند ثبوت الجرم فنفذ حكم

---

(٢٧١) كتابنا الاصول العربية ج١ ص٨٧–٨٨ راجع ايضاً المحفوظات الملكية المصرية ج١ ص١٨٨

(٢٧٢) المحفوظات الملكية المصرية ج ١ ص ٩٦

الاعدام اكثر من مرة في اناس ثبت عليهم هذا الجرم . قال ابراهيم في كتاب له الى سامي بك الباشمعاون : « ستعلمون عندما تقرأون اوراق نعوم نوفل ان اهل عربستان ميالون جدا الى اعطاء الرشوة ومراعاة الخواطر حتى أدى ذلك الى اكتشاف خيانة بعض المتسلمين ومحاسبتهم وعزلهم . وقد تحملنا في سبيل انقاذهم من بلية الرشوه كثيرًا من العناء . ولكننا لو تركناهم على حالهم لخاضوا في السلب والنهب خوض المقدمين على الاغارة »[٢٧٢] .

وقال العزيز بوجوب توحيد القلوب فقام ابنه ينفذ هذه الرغبة السامية وكتب في اوائل عهده في بر الشام الى متسلم اللاذقية يقول : « والتعرض الى الرعايا وعدم مؤاساتهم هذا مخالف لرضانا لان الاسلام والنصارى جميعهم رعايانا وأمر المذهب ما له مدخل بحكم السياسة فيلزم ان يكون كل بحاله المؤمن يجري اسلامه والعيسوي كذلك ولا أحد يتسلط على أحد»[٢٧٣] . واحترم العزيز زعامة الدروز والنصارى في لبنان وخارجه احترامه لزعامة اخوانهم المسلمين . ولم يتاخر قيد شعرة عن ترقية الدروز والنصارى عند ثبوت الاستحقاق . فعين لدى وصوله الى عكة الشهابي الكبير « مديرًا لمصالح البلاد » وقال عنه سرًا لا يوجد عندي في بر الشام رجل بمعنى الكلمة سوى هذا الرجل الشهم . وحيث انه أظهر هذه الصداقة والأمانة فلا يهمنا قط اكثر عدد الاصدقاء ام قلّ . وعرض عليه فيما بعد حاكمية بر الشام باكلها فرفض الشهابي وكان ما كان من امر ترشيح محمد شريف باشا كما سنرى[٢٧٤] . ورقى الى رتبة البكوية حنا بحري وهو نصراني ونعمان جنبلاط وخطار العماد وعبد السلام العماد ونصيف ابو نكد وهم دروز[٢٧٥] . ومما يروى من هذا القبيل انه لدى قدوم ابراهيم باشا الى دمشق في دورة تفتيشية لفت حنا بحري بك نظر « ولي النعم » الى ان المسلمين من اعضاء مجلس الشورى في دمشق لا يظهرون له ما يستحقه من الاكرام والاحترام وعزا ذلك الى كونه مسيحيًا لا يدين بدين الاسلام . فقال ولي النعم قل لاعضاء المجلس اني راغب في زيارتهم في المجلس وأخبر القاضي والمفتي والنقيب بذلك وبوجوب حضورهم الى المجلس . ففعل . ولدى وصول ولي النعم الى المجلس وقف في الباب والتفت الى الوراء وقال الى حنا بحري بك : « بحري بك بحري بك بيوركز افنديز بيوركز» ومعناه بحري بك تفضلوا يا افندينا . فامتثل

(٢٧٢) المحفوظات الملكية المصرية ج ٣ ص ٦٩ — ٧٠
(٢٧٣) المحفوظات نفسها ج٢ ص ١١٧
(٢٧٤) المحفوظات كذلك ج١ ص١٧٦ وج٢ ص٨٦
(٢٧٥) المحفوظات نفسها ج٤ ص٤٧٢ — ٤٧٣

بجري بك ودخل القاعة قبل الباشا . وعندئذ وجّه الباشا كلامه والناس وقوف الى بجري بك مرة ثانية قائلاً : « بجري بك اوتوركز افنديز » ومعناه اجلسوا يا افندينا وبالجمع لزيادة التوقير . ثم التفت الى الاعيان فقال :« قاضي افندي اوتور – بالمفرد – مفتي افنـدي اوتور نقيب افندي اوتور وهكذا الى النهاية . فاعتبر الاعيان واظهروا بعد هذا ما كان يستحقه بجري بك وغيره من اكرام واحترام ولم يترددوا البتة . وسمح العزيز وابنـه ابراهيم بترميم الكنائس والاديرة وبانشاء الجديد منها وغضًا الطرف عن ارتداد ثلاثة من الموارنة كانوا قد تقبلوا الاسلام فاستمالا قلوب « الرعايا » وخطّا فصلاً جديدًا في تاريخ حرية المعتقد في بر الشام. ولكنهما لم يسمحا بتنصر بعض الدروز خوفاً من اساءة الفهم واستفزاز الجمهور[٢٧٦] . وعاقب محمود نامي بك جد الداماد احمـد نامي بك ومحافظ بيروت آنئذٍ بعض مسلمي بيروت لانهم تفوهوا ببعض كلمات غير لائقة بحق النصارى[٢٧٧] .ورأى العزيز ان يجند النصارى ليُبعد الدول الاوروبية عنهم وعن اثارة الفتن بواسطتهم وليزيل عداوة المسلمين ويوطد صداقتهم[٢٧٨] .

ومن الوسائل التي تذرع بها العزيز لتوحيد القلوب انه لم يغرق الشام بالموظفين المصريين ولم يرسل من وادي النيل الا من استوجبت الضرورة ايفاده . ومن ذلك ان أمر محمد شريف بك الحكمدار ان يُسند متسلمية دمشق الى احد اعيان هذه البلدة او الى مصري « اذا تعذر وجود كفوء لها من الدمشقيين انفسهم[٢٧٩] .» وقال ايضاً في كتاب ارسله الى سليمان باشا انه عيّن حراس الصحة في المراكب المسافرة الى بر الشام من ابناء مصر لانه لم « يجد من هو اهل لذلك من الشوام انفسهم[٢٨٠] » . وخرج في الوقت نفسه عن تقاليد الادارة في مصر فوافق على ترقية البارزين من اولاد العرب حتى الرتبة يوزباشي . وذهب ابراهيم الى أبعد من هذا فأكد لوالده ان نسبة المخلصين من العرب أعلى من نسبة غيرهم من زملائهم الاتراك واقترح ترقية بعض العرب الى رتبة بكباشي[٢٨١] . ونوّه بفضل العرب على المدنية وقال في ظروف خاصة انه اتى مصر طفلاً وان شمسها غيرت دمه فجرى عربياً[٢٨٢] .

وفرّق العزيز في سياسته الداخلية بين وطني آمن وبين أجنبي طامع فشمل الاول بعطفه

(٢٧٦) المحفوظات كذلك ج ٣ ص ٤٤٤ و٢٨٥ و٢٨٨ و٢٩٥ و١٣٧

(٢٧٧) المحفوظات ايضاً ج ٤ ص ٤١٥–٤١٦

(٢٧٨) المحفوظات نفسها ج ٤ ص ٤٢٦

(٢٧٩) المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٢٨٠

(٢٨٠) المحفوظات ج ٣ ص ١٣٣

(٢٨١) المحفوظات ج ٣ ص ٦٧ و ج ٤ ص ٤٦٠

(٢٨٢) كتابنا اسباب الحملة المصرية ص ٦٤–٩٥

وحذر بطش الاخر . فوافق مثلاً على السماح لتابع قنصل انكلترة في رودوس باستخراج الاسفنج من مياه الشام . ولكنه رأى ان يمنع عن ذلك اذا كانت هذه المصلحة بيد رجل وطني . وأوجب منح التجار الوطنيين الامتيازات نفسها التي تمتع بها التجار الاجانب. وساوى بين الوطنيين وبين الاجانب فسمح للوطنيين بتصدير بضائعهم من مرافئ بر الشام . وجاء في رسالة من المعية السنية الى ابراهيم باشا انه لا يمكن ائتمان الاجنبي المتجنب على مصالح البلاد وانه نظرًا لتصلب اسكواره بك في رأيه واستئثاره بشؤون مدرسة المدفعية تقرر تشكيل لجنة من خريجي مدارس اوروبة من ابناء البلاد للنظر في تنظيم المدارس[٢٨٣] .

وعُني العزيز بالمحافظة على ثروة البلاد وبزيادة انتاجها . وسعى سعياً حثيثاً للوصول الى مرحلة معينة من التطور الاقتصادي ليتمكن فيها من الاستغناء عن اوروبة . ولذا فانه لم يرَ مبررًا لخوف ابنه من تسرب النقود الى الخارج لان الشام ستقدم له من الفحم والحديد والخشب ما يستغني به عما يستورده من اوروبة ولانه يأمل ان يكفي بر الشام مؤونة الشيت والملبوسات بفضل ما كان يقوم به من تنظيم للصناعة بحيث لا يبقى القطر الشامي بحاجة الى منتوجات البلدان الاجنبية[٢٨٤] . والواقع ان العزيز ألحّ منذ بدء حكمه في الشام بوجوب ارسال عشرين او ثلاثين صبياً من بر الشام الى مصر لتعلم صنع الجوخ والطرابيش ولادخال هذا الفن الى بلادهم لتتحول ارباح الاجانب من هذه البضاعة الى ابناء البلاد[٢٨٥] . ثم وافق على انشاء معمل لصنع العباءات في عكة فصور[٢٨٦] .

وكان ابراهيم يعير الزراعة شطرًا وافياً من اهتمامه الشخصي فنراه يستطلع رأي الجناب العالي هل يسمح باعفاء من يحيي الاراضي المهمولة بغرس الاشجار والعنب من الاموال تشجيعاً له ام لا[٢٨٧] ونرى اللواء احمد بك يكتب الى ابراهيم نفسه مبيناً عدد القرى والمزارع التي تم احياؤها حتى السنة ١٢٥٢ فيقول ان عددها في جهات حلب وحدها بلغ الرقم ٨٥ . ونلمس في موضع آخر وصول بعض رجال الاختصاص الذين درسوا الزراعة في فرنسة الى فلسطين والتحاقهم بمصلحة تطعيم الاشجار[٢٨٨] .

---

(٢٨٣) المحفوظات الملكية المصرية ج ٢ ص ٣٨٨ و ج ٣ ص ١٨٨ و ٧٩

(٢٨٤) المحفوظات ايضاً ج ٣ ص ١١٢–١١٣

(٢٨٥) المحفوظات نفسها ج ٢ ص ٣١٣

(٢٨٦) المحفوظات كذلك ج ٢ ص ٣٣٥

(٢٨٧) المحفوظات ايضاً ج ٢ ص ٣٨٦–٣٨٧

(٢٨٨) المحفوظات ج ٢ ص ٣٢٦ اطلب ايضاً فيما يتعلق بالزراعة في حلب ج ٣ ص ١٤٣

ولمس ابراهيم ظلماً لحق الفلاح والمزارع من جراء تلزيم الضرائب فكتب الى الباشماون وجوب الغاء التلزيم وجباية الضرائب مباشرة وقال : « اني لم اقصد من طرح هذه الضرائب مباشرة جلب وفر لجانب الميري فقط بل اني رأيت في ذلك نفعاً وسهولة يعودان على الجانبين معاً . فقد تيقنت ما يلقاه الاهـالي من الظلم والجور والاذى والخسارة من الملتزمين حين يأتون الى القرى التي التزموا عشرها ويقيمون فيهـا . فأكول الملتزم ورجاله وعليق دوابهم ومأكول معارفهم الذين يمرون عليهم في اثناء السفر جميع هذا على حساب الاهالي . وليس بامكان هؤلاء ان ينقلوا غلالهم من البيادر ما لم يسمح الملتزم بذلك . فقد تبقى هذه الغلال على بيادرها حتى الخريف فتتعرض للتلف والفساد من جراء سقوط المطر . ولو فرض حدوث مظالم وأكل حقوق بموجب النظام الجديد فانه سيكون نادراً كما اننا لا نحجم عنـدئذ عن اجراء التحقيق اللازم . ولقد سأل شيوخ القرى بين الشام وحلب جرمانوس لدى مروره في قراهم اننا سمعنا ان ضرائب العشر ستطرح على الاهالي بالمقطوعية فقل لنا ماذا تم »[٢٨٩] .

هذه نماذج من اقوال العزيز وابنه ورجـالها . وهي لا تحتاج الى الكثير من الجرح والتعديل فهي اقوال المسؤولين عن اعمالهم وقد دونت في زمن وقوعها ولم تقصد بها اية دعاية لانها كانت سرية او على الاقل غير مباحة للجمهور .

٢ ـ هيكله ولا بد قبل الخوض في الكلام عن هيكل الادارة في عهد العزيز من اجلاء امرين اساسيين هامين اولها حدود بر الشام والثاني صلاحيات العزيز. والشام في عرف العزيز شملت ايالات حلب ودمشق وطرابلس وصيدا وتوابعها . بيد ان قلة الثقة بين العزيز وبين السلطان ادت الى مفاوضات شاقة حول الحدود الشمالية الشرقية. وهنالك غموض ونقص في المراجع يضيع معها الباحث فيحتار في امره . وجل ما يمكننا ان نقوله الان هو ان الفرات كان بوجه اجمالي الحد الفاصل بين العزيز وبين السلطان في الشرق وان عينتاب وكلس وكورد داغ وقعوا جميعاً ضمن الحدود المصرية . والامر الثاني هو ان العزيز بقي من الناحية القانونية حتى اخر عهده في بر الشام والياً من ولاة السلطنة يحكم بموجب امر سلطاني يوجه اليه سنةً فسنة . ولكن الواقع الذي لا جدال فيه هو ان هذا الوالي كان اقوى ولاة السلطنة واجدرهم بالحكم وانه كان يضاهي السلطان نفسه قوة وعزة ومجداً وقد تمكن بالفعل من قهر الجيش السلطاني ومن اسر قائده الصدر الاعظم نفسه ومن املاء شروطه على السلطان.

(٢٨٩) المحفوظات نفسها ج٣ ص ١٢٠-١٢١

ولم يختلف رأي العزيز في نفسه وفي صلاحيته عما تقدم . فهو المرجع الاعلى في الحكم وحكمه لا يرد . ولكنه رأى ان يُشرك الاعيان في الحكم فيستشيرهم في كثير من الامور ويحتفظ بالراي الاخير لنفسه . ومن هنا مجالس المشورة التي انشأها في المدن وامهات القرى « لسماع جميع الدعاوى واحالة الشرعية منها الى قضاة الشرع وفصل الادارية السياسية منها باتفاق الاراء واحالة القرارات النهائية الى المتسلم لتنفيذها»[٢٩٠] . ورأى العزيز ان يُراعى في تشكيل هذه المجالس مبدأ تمثيل الطبقات والطوائف فجعل مجلس دمشق مثلا مؤلفاً من « الاكابر والاعيان وابناء البيوت والتجار واغاوات الحارات »وانتقى اثنين من وجوه النصارى فأجلسهما لاول مرة في تاريخ الشام جنباً الى جنب في هيئة حكومية مع اخوانهم المسلمين . ورأى ان يذهب الى ابعد من هذا في تمثيل النصارى في بيروت فجعل مجلسها مؤلفاً من ستة من المسلمين وستة من النصارى . واليك اسماء اعضاء هذين المجلسين : مجلس دمشق – حافظ بك العظم وسليم افندي الكيلاني ومحمد افندي العاجلاني ونسيب افندي حمزه وعلي اغا الترجمان وصالح اغا المهايني وعلي اغا خزينة كاتبي وعبد القادر اغا كيلاهلي واحمد افندي البكري واحمد افندي المالكي وراغب افندي الحسني واحمد افندي أنس وجميعهم في نظر العزيز من الاكابر والاعيان فابناء البيوت . وابراهيم بك المسودن والحاج نعمان اغا الباشجي والشيخ سعيد العطار والحاج ابراهيم البنتولي من التجار. وصيامي اغا الحكيم وحمو اغا الكبير ومحيي الدين اغا خير وعبد القادر اغا الحطاب من اغاوات الحارات . والخواجه روفائيل الصراف والخواجه مخائيل كحيل من النصارى . اما مجلس بيروت فانه تالف من السيد عمر بيهم والسادات احمد العريس وحسن البربير وامين رمضان واحمد جلول عن المسلمين ومن الخواجات جبرائيل حمصي وبشاره نصرالله والياس منسّا ونصيف مطر ويوسف عيروط وموسى بسترس عن النصارى[٢٩١] .

وكان على رأس الادارة في بادئ الامر ابراهيم باشا نفسه وعندما ازدادت مشاغله

---

(٢٩٠) عن اصل ضائع. راجع ترجمته الى العربية في تقويم النيل لامين سامي باشا ج ٢ ص ٤٠١ اطلب ايضاً النابة من تشكيل مجلس قونية : المحفوظات ج ٢ص ٢١٩ . وفي علاقة المتسلم بالمجلس راجع كتابنا الاصول العربية ج ٣ ص ٢٢٧ . وكان ابراهيم يستعمل الاصطلاح مجلس المشورة بمعنى اوسع في بعض الاحيان . اطلب المحفوظات ج ٣ ص ١٧٠

(٢٩١) حروب ابراهيم باشا المصري للقس انطون الحلبي ج ١ ص ٣٧ واسماء اعضاء سائر المجالس موجودة في المحفوظات – حلب مثلاً ج ٣ ص ٨٤ وحمص ج ٣ ص ١٧٨

العسكرية جعل الشهابي الكبير «مديراً للمصالح» يختم الاوراق التي يجب ختمها من الباشا[٢٩٢] .
ثم رأى القائد الفاتح ان يفصل ادارة البلاد عن قيادة الجيش وان يعين حاكماً عاماً لبر الشام وعرض هذا المنصب الرفيع على الامير الشهابي حاكم لبنان فاعتذر . وعندئذ كتب الى والده يقترح تعيين محمد شريف بك كتخدا العزيز وحاكم الصعيد آنئذٍ . فوافق العزيز على اقتراح ابنه ابراهيم وقبل الكتخدا المنصب الجديد وغادر مصر الى اركلي فقابل ابراهيم باشا وعاد منها الى دمشق فوصلها في السادس والعشرين من جمادى الاخرة سنة ١٢٤٨ وجعلها مركز ادارته[٢٩٣] . وكتب الى اعيان البلاد يقول «لا يخفاكم ما فاضت به بحور احسانات سعادة افندينا ولي النعم الخديوي الاعظم عزيز مصر المعظم دام ما دام العالم وذلك بتفويض احكام ايالات الاقطار الشامية لعهدة عجزنا . وبحسب صدور الارادة السنية الخديوية قد حضرنا الى هذه الجهات وعنه تعالى قد تيسر دخولنا لمحروسة الشام نهار الاثنين المبارك الواقع في السادس والعشرين منه . وقد تليت الاوامر الشريفة بديوان الشام وصار ذلك معلوم الخاص والعام . فلزم تحرير طرسنا هذا اشعاراً لكم ليكون معلومكم ان جميع مراجعات مصالح الاحكام قد تحولت مناظرتهــا لنا ومن الان وصاعد تكونوا متقيدين بصدق الخدامة وحسن الاستقامة»[٢٩٤] . وعاون الحكمدار في مهمته هذه «ديوان حكمداري» مؤلف من عدد كبير من الكتبة والتراجمة ورجال الاختصــاص منهم الشامي والمصري[٢٩٥] . وأبقى العزيز التقسيمات الادارية العثمانية القديمة ولكنه استعاض عن كلمة ايالة بكلمة مديرية فقسّم بر الشام الى مديريات اربع حلب ودمشق وطرابلس وصيدا واتبعها جميعها بالحكومة الحكمدارية في دمشق . وجعل على راس كل مديرية مديراً يمثل السلطــة المركزية فيها فعين اسماعيل عاصم بك احد انسبائه مديراً في حلب ويوسف اغا شريف بتشديد الياء مديراً في طرابلس والشيخ حسين عبد الهادي مديراً في عكة وألحق مديرية دمشق بالحكمدار نفسه . وعين الى جانب الحكمدار في دمشق يوحنا بحري مديراً عاماً للماليــة وأحاطه فيما بعد بديوان عام ينظر في مالية بر الشام . وبقيت المديريات (الايالات السابقة) مقسمة الى متسلميات ومقاطعات وعلى راس كل متسلمية متسلم يعينه الحكمدار وعلى راس كل مقاطعة شيخ او اغا او بيك يتولى

---

(٢٩٢) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا ١٩ شعبان ١٢٤٧ : المحفوظات ج ١ ص ١٧٦

(٢٩٣) المحفوظات ج ٢ ص ٨٦ و٨٩ و٩٩ و١٠٠

(٢٩٤) غاية جمادى الاخرة سنة ١٢٤٨ (٢٣ تشرين الثاني سنة ١٨٣٢) : كتابنا الاصول العربيــة ج ٢ ص ٥٠–٥١

(٢٩٥) المحفوظات ج ٢ ص ٢٥٧ و٣٠٨ وغيرها .

امورها بالتوارث . وبقي الى جانب كل متسلم صراف يمثل المالية ويسعى لحماية مصالحها ومباشر يجبي اموالها وناظر في كل قرية للغاية نفسها[٢٩٦] .

واحتفظ لبنان بامتيازاته القديمة فبقي مستقلًا عن المديريات الثلاث المحيطة به . وأضاف الى هذه الامتيازات انه اصبح مرتبطاً مباشرة بالعزيز دون وساطة المديرين او الحكمدار فحقق اميره ما صبت اليه نفسه في اواخر عهد الجزار عندما اتصل بالصدر يوسف ضيا باشا ورجاه ان يربطه بالباب العالي مباشرة كما سبق فأوضحنا. ودليلنا على هذا ان الحكمدار يقول في احدى رسائله الى ابراهيم باشا انه كتب يستعلم عن محل اقامة الامير فندي فتبين له انه مقيم في مشغرة وان هذه ضمن حدود لبنان فأوقف فرسانه عن الملاحقة واكتفى بعرض الحالة على الاعتاب السنية فأجابه العزيز: « يجب ان تشعر الامير بشير بمن نقل اليك اخبارك »[٢٩٧]. وهنالك دليل آخر فانه عندما اوشك حكم العزيز ان ينتهي وبدأت اصابع الدول تلعب في لبنان كتب رينشارد وود عميل بريطانية الاكبر الى الامير بشير الثاني الكبير ما نصه : « لم يجب تخشو من وجه كون الاربع دول المشار اليهم يتعهدوا بان يعطوا الجبل لبنان تلك الشرايع والحرية السالفة مع الانعامات التي كانت تتمتع بها الاهالي تحت احكام السلاطين[٢٩٨] ».

وكان يوم الشام في مطلع كل سنة قضاة ثلاثة يعينهم قاضي العسكر ليتولوا القضاء في حلب ودمشق والقدس فاما ان يعودوا من حيث اتوا في اخر السنة او ان تجدد ولايتهم سنة ثانية . وكان العزيز فيما يظهر قليل الثقة بهؤلاء يخشى تدخلهم في السياسة فأمر ان يراقبوا مراقبة شديدة وان يعرضوا احكامهم على الحكمدار او المدير قبل اصدارها[٢٩٩] . ويستدل من بعض الاوراق الباقية ان العزيز كان يتدخل في تعيين نواب الشرع بشكل ليس بالامكان تحديده[٣٠٠] .

٣ ـ اصلاحه وأراد ابراهيم اصلاحاً حقيقياً فرقب الادارة الجديدة رقوباً شديدا وتفهم ضعفها فكتب مرارًا وتكرارًا الى القاهرة يشكو الاضطراب الذي وقع في هذه الادارة ويعزو ذلك الى اهمال الموظفين وانصرافهم الى ملذاتهم وشؤونهم الشخصية وبين هؤلاء محمد شريف باشا نفسه واسماعيل عاصم بك . وتولى تفتيش الادارة بنفسه فألفاها ملوثة تلويثاً ووجد بحري بك مهملًا ولمس تراكم اعمال المجلس في دمشق سنة ونصف سنة

(٢٩٦) المحفوظات ايضاً ج ٣ ص ١٠٢-١٠٣ و ٢٤٦-٢٤٧ و ٢٤٨

(٢٩٧) المحفوظات كذلك ج ٤ ص ١٩٠

(٢٩٨) المحفوظات ج ٤ ص ٤٣٢

(٢٩٩) المحفوظات ج ٢ ص ٣٨٣

(٣٠٠) المحفوظات ج ٢ ص ٣١٩

فأمر بجبس اعضائه في قاعة المجلس الى ان يتموا رؤية الشؤون الموقوفة ! وشكى ارتباك الامور في مديرية صيدا فأفاد ان رجلًا اتى اليه وادعى انه بامكانه ان يثبت ان متسلم غزة اختلس ما لا يقل عن الفي كيس وانه قرر ان يقضي فصل الشتاء في هذه المديرية للاعتناء بشؤونها . وكتب في احدى رسائله الى معاون العزيز يقول : اخي تعلمون اني مريض اتمتع بالصحة يوماً فينتابني المرض يومين واني انتقل من محل الى اخر لاخماد الثورات التي تظهر بدون انقطاع ولذا فاني لا اقدر على ادارة الشؤون العسكرية والمدنية في آنٍ واحد . فلا بد والحالة هذه من تعيين شخص يكرس وقته للشؤون المدنية . واني ارى في شرمي افندي خير من يقوم بهذه المهمة . فاذا وافقت الارادة السنية على تعيينه قام هو بالتفتيش وقمنا نحن بتفتيش آرائه[٣٠١] .

والغريب المستغرب ان هذا القائد العظيم شكى كل هذا ولكنه لم يربط بينه وبين تاخر مرتبات الموظفين تاخرًا قد لا نجد مبررا له . قال ابراهيم في الرد على خطاب التمس فيه الحكمدار صرف مرتبات نظار المستودعات مرة كل اربعة اشهر قال : ايها الباشا اذا كان لهؤلاء طلب فلنا واحد وعشرون مرتباً . وقد كتبت اليك غير مرة في مسألة النقود وكانت تاتي منك كتب يحتوي كل منها اربع مئة سطر لا ذكر فيها للنقود . وهل يرضى الله تعالى ان ينام الناس في احضان ازواجهم ويظل الجنود التعساء تائهين في الجبال وبين الصخور وليس لديهم نقود . وكتب الى الامير بشير في الموضوع نفسه ما نصه :« وردت ورقتكم المتضمنة خصوص استنظار العيسوية من شان صدقه . يا مير يلزم في هذا الخصوص تحلم علينا . في الواقع يقولوا الصدقات ترد البلا وتزيد العمر . ولكن في حقنا العسكر بقالهم واحد وعشرين شهر لم اخذوا نصف فضه » . وقال بحري بك في كتاب رفعه الى ابراهيم باشا : ان الموظفين الملكيين مثل المتسلم والكاتب اصبحوا في حاجة الى قوتهم اليومي من جراء عدم صرف مرتباتهم الموقوفة . وحيث انهم اصحاب اولاد وليس لديهم مورد رزق آخر فلا يبعد والحالة هذه ان يفتروا عن اداء الواجب وان يمدوا بدافع الضرورة ايدي العبث والتطاول الى مصالح الاميرية المحولة الى عهدتهم والى اموال الاهالي . ولذلك فاني اقترح ما يأتي : يصرف مرتب شهرين لمن اوقفت مرتباتهم ستة اشهر ثم يصرف مرتب شهر واحد في كل شهرين كما هو جارٍ مع افراد الجيش[٣٠٢] .

وتقدم بحري بك باقتراح لاصلاح ادارة المالية جاء فيه ما يلي : ١ً تحديد المبالغ المطلوبة

---

(٣٠١) المحفوظات ج ٣ ص ٤١٧–٤١٨

(٣٠٢) المحفوظات ج ٤ ص ٢٦–٢٧

من كل مديرية ومدينة وقرية وطبعها بوضوح في دفاتر معينة وطبع غيرها للمحاسبـة وتعليم خطباء القرى وفقهائها استعمال هذه الاوراق والدفاتر وتعيين خطيب لكل قريتين او ثلاث وتعيين معاون لكل خمسين قرية يشرف على اعمال الخطباء. وكاتب يقوم بتعليمهم عند الحاجة. ٢ً مراقبة القرى وحمايتها من جور التجار واعتداء اصحاب القوة والاقتدار وشذوذ الموظفين واستخفافهم بالقانون . ٣ً اعداد دفاتر خاصة يوضع على راس كل صحيفة منها رقمها المتسلسل وتختم بخاتم ديوان الحكومة وتوزع على الجهات التي تستعمل فيها . ٤ً الاهتمام بضبط المكاييل والموازين وابطال ما كان مختلا منها . ٥ً جرد النقود الموجودة لدى الصيارفة في اوقات غير معلومة وفحص حساباتهم[٣٠٣]. تقدم مدير المالية بهذا الاقتراح ولكننا لا نعلم ماذا تأتى عنه.

وشاء العزيز ان يدفع عنه اعتراضات قناصل الدول واحتجاجاتهم فرأى من الحكمة ان يولّج اوروبياً مثلهم النظر في امورهم وامور رعاياهم فعهد بذلك الى سليمان باشا الفرنساوي . وبدأ هذا يضبط هوياتهم وطبق قوانين التجول المتبعـة آنئذٍ في اوروبة . فعرض على كل اجنبي الاتصال بقنصله لدى وصوله الى بر الشام للتأشير على جواز سفره وأوجب مثوله امام السلطات المحلية للحصول على شهادة هوية يبرزها عند الطلب[٣٠٤] . وكان ابراهيم باشا قد عهد الى اسماعيل عاصم بك مدير حلب بمراقبة الحدود التركية وتنظيم شبكة لنقل اخبار الخصم داخلها . فلما بدأت علاقـات العزيز مع السلطان تتأزم من جديد انشأ ابراهيم باشا قلم استخبارات عسكرية برئاسة المسيو إليه رئيس الاستخبارات بجزيرة كورسكه[٣٠٥] . وعُني ابراهيم ايضاً بتحسين المواصلات ولاسيا بتنظيم البريد العسكري وقسمه الى قسمين عادي ومستعجل فكانت رسائله المستعجلة تصل من بعلبك الى مصر في ستة ايام[٣٠٦] . ثم اراد ابراهيم ان يخدم الجمهور فامر باعداد مشروع خاص لانشاء بريد عام ينقل رسائل الجمهور . وما ان علم قنصل بريطانية بذلـك حتى احتج مدعياً ان انشاء بريد عام يضر بالبريد الانكليزي الذي كان يصل بيروت بدمشق . فاستدعى العزيز قنصل بريطانية العام اليـه وفاوضه في الامر فوعده بالتدخل . فأمر العزيز ابنه ابراهيم بوجوب المضي بالعمل واجراء ما يلزم[٣٠٧] .وقبيل انتهاء حكمه في الشام أمر العزيز بانشاء ابراج للاشارة بين مصر والعريش

(٣٠٣) المحفوظات ج ٤ ص ٢٧-٣١

(٣٠٤) المحفوظات ج ٢ ص ١٥٢

(٣٠٥) المحفوظات كذلك ج ٣ ص ٤٤١

(٣٠٦) المحفوظات ايضاً ج ٤ ص ٤٤٧

(٣٠٧) المحفوظات ج ٤ ص ٢٨٨ و٢٩٨ و٣٠٨

وبين العريش وعكة[٣٠٨] . وكان سليمان باشا الفرنساوي قد اقترح على سامي بك معاون العزيز انشاء طريق تصل بيروت بدمشق وطريق غيرها تربط قرنايل ومناجمها ببيروت[٣٠٩] .

٤ ــ مكانته في تاريخ بر الشام

هذا هو نظام الحكم في بر الشام في عهد العزيز وميزاته الكبرى القوة والضبط والعدل . قال ابراهيم في عرض الكلام عن مرعش واورفه : انني في خلال المدة التي وليتُ فيها القيام بخدمة الجناب العالي الخديوي لم اتسبب في اذية اي انسان ولم اعمد الى ايقاع الضرر بملك او مال اي فرد من الناس. وهذا امر يعرفه جميع اولى الابصار كما يعرفه جميع اهالي البلدان التي جبتها واهالي البلدة التي اقيم فيها الان . ولما كنت اعامل الضباط والعساكر حسب نصوص القوانين ولا احيد عنها في علاقاتي معهم قيد شعرة فقد اقتفوا هم ايضاً اثري ولم ينحرفوا عن هذه القوانين . اني وان كنت لم آتِ بعد اورفه فانني منذ عشرة اشهر اقيم في مرعش . ولقد أعلن وجوه الاهالي في مرعش المرة بعد المرة انهم لم يتمتعوا طيلة حياتهم بمثل حكمنا العادل . اعلنوا هذا في اسواق البلدة وفي جامعها الكبير وهم يقولون لقد كانوا في العهد السابق يستولون على ما في بيادرنا من غلال وينهبون اثمار بساتيننا . وهب الله سلطاننا العمر الذي لا يفنى وعساه الا يحرمنا من وزيرنا هذا العادل اي العزيز نفسه ذلك اننا لا نعاملهم كما كانوا يعاملون قبلاً من حيث التجني عليهم واتهامهم بدون حق لغرض ما . والاهالي الان يؤدون الويركو على نحو ما هو مسجل في سجلات المحاكم لا اكثر ولا اقل . انني ادفع اثمان جميع حاجياتي اللهم الا ايجار المنزل الذى اقيم فيه وثمن الماء الذي اشتريه . وانا متكفل امر استقامة العساكر وحسن سيرهم.[٣١٠] نقول هو منتهى الاحساس بالعدل ولو صيغ بقالب فصيح بليغ لاصبح نبراس الحكم والاحكام كما صار عهد ابقراط اليمين التي استوثق بها الاطباء .

ومن مميزات هذه الحكومة وهذا النظام انها كانت تميل الى المشاورة في الامور قبل ابرامها وانها كانت متنورة تحب العلم وتشجع طلابه . ولعل ابهج هذه المميزات واقربها الى نزعة العرب في هذه الايام انها سبقت اخواتها في العالم العربي الى العروبة . فقدمت الوطني على الاجنبي وعنيت بطبع الكتب العربية وقبلت العرب في الوظائف الهامة وقللت الاتراك .

---

(٣٠٨) المحفوظات كذلك ج ٤ ص ٤٥٨

(٣٠٩) المحفوظات ج ٣ ص ١٦٨

(٣١٠) ابراهيم باشا الى محمد علي باشا اوائل محرم سنة ١٢٥٦ (حوالي منتصف اذار ١٨٤٠) : المحفوظات ج ٤ ص ٣٠٤–٣٠٧

مضامين الكتاب

انجزت المطبعة الكاثوليكية في بيروت
طبع هذا الكتاب في الحادي والثلاثين
من شهر كانون الاول سنة ١٩٦٦